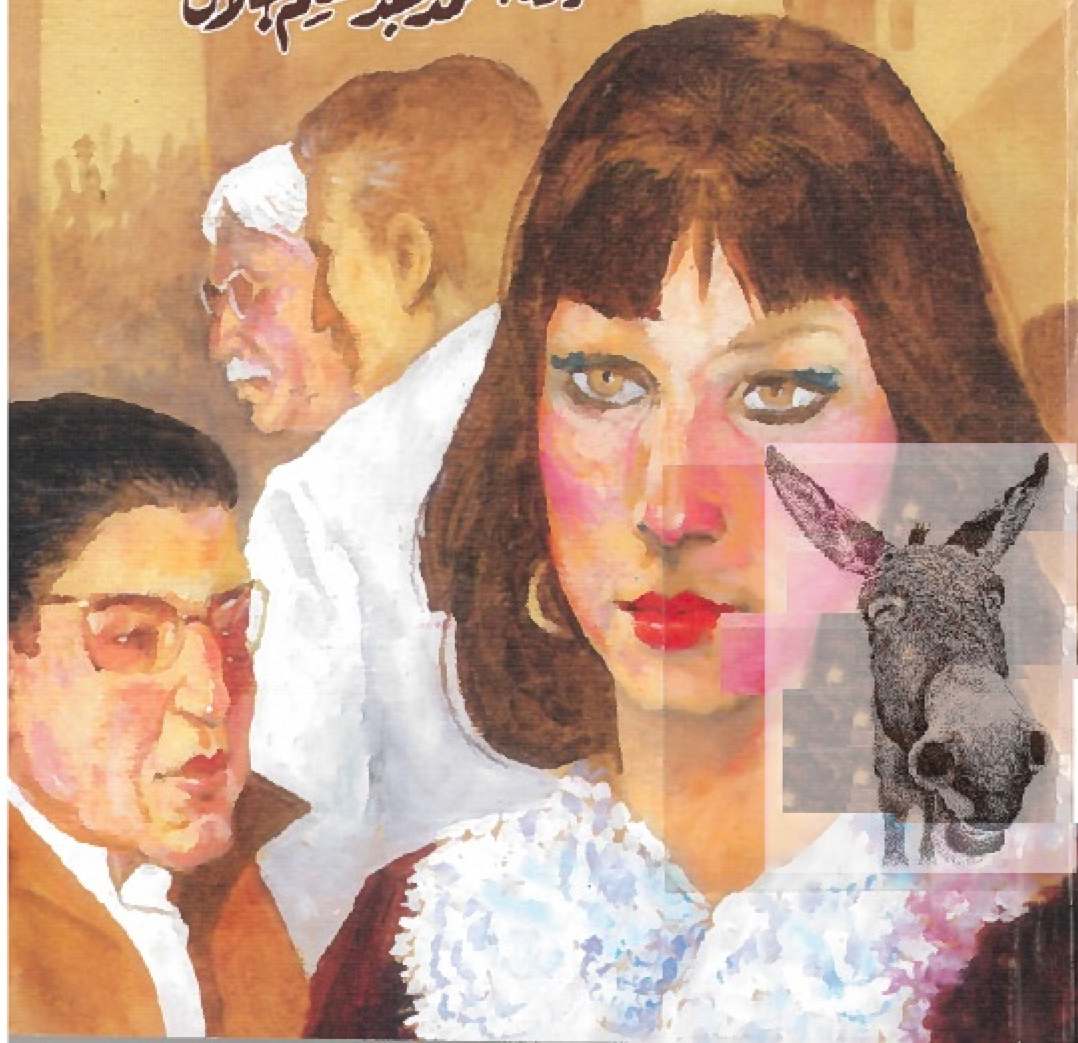
روايات الهلال

باتريك موديانو

شارع الحوانيت المعتمة

ترجمة: محمد عبد المنعم جلال



روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي
تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
عادل عبد الصمد

المستشار الفني
محمد أبو طالب

المدير الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
هالة زكي



الغلاف ريشة:
عبادة الزهيري

الإصدار الأول
يناير ١٩٤٩

العدد ٧٢٨
أغسطس ٢٠٠٩م
شعبان ١٤٣٠هـ
مسرى ١٧٢٥ق

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٢٥٠ فلس - الكويت ٢٥٠,١ فلس - السعودية ١٢ ريالا البحرين ١.٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١.٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٤.٢ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٤.٣ جنيه

البريد الإلكتروني
darhilal @ idsc. gov. eg

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢عددا) ٦٠جنيها مصريا داخل (ج. م. ع) تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقي دول العالم ٦٠ دولارا. القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال.

Email : subscription_dept@yahoo.com

الإدارة

القاهرة.
١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:
ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدي ١١٥١١ -
تلغرافيا: المصور - القاهرة
ج. م. ع.
تلكس:
Telex 92703 hilal u n
فاكس:
FAX: 3625469

شارع الحوانيت المعتمة

باتريك موديانو

ترجمة: محمد عبد المنعم جلال

دار الهلال

إسم الرواية : **شارع الحوانيت المعتمة**

تاليف : **باتريك موديانو**

ترجمة: **محمد عبد المنعم جلال**

إشراف : **محمود قاسم**

الخطوط **محمد العيسوى**

رقم الإيداع : ١٥٠٤٤ / ٢٠٠٩

الترقيم الدولى I . S . B . N: 977-07-1367-8

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

RUE DES BOUTIQUES OBSCURES

تأليف:

PATRICK MODIANO

قبل أن تقرأ

«شارع الحوانيت المعتمة» هى بلا شك أهم رواية فى الأدب الفرنسى منذ صدورها حتى الآن ليس لأنها حصلت على جائزة جونكور فى الرواية عام ١٩٧٨ بل لأن مؤلفها باتريك موديانو هو أحد أهم الظواهر الأدبية الحديثة منذ ظهوره لأول مرة فى مسبح الأدب عام ١٩٦٨ وحتى الآن فهو يشكل تياراً أدبياً خاصاً به.. تتضح أبعاده مع كل عمل روائى جديد..

وتجيء أهمية موديانو – وسط أبناء جيله – أنه أخلص لفن الرواية دون غيرها من فنون الكتابة . فلم يعمل فى الصحافة ولم يجرب أياً من الفنون الأخرى إلا فى أضيق الحدود – كما سنرى – كما تجيء أهميته أيضاً فى أنه يعد بنفسه تياراً أدبياً وجيلاً بأكمله يقوده وحده وهو الوحيد الذى يسير فيه . لدرجة أن النقاد قد أشاروا إلى أنه الوحيد – من بين المعاصرين – الذى يمكن أن يعيد للرواية الفرنسية أمجادها وعظمتها التى افتقدتها منذ رحيل مارسيل بروست والبير كامى.

ولد موديانو فى ٣٠ يوليو عام ١٩٤٥ لوالد من أسرة تنتسب أصولها إلى إحدى المدن الصغيرة بشمال تونس . وقد عاش طفولة هادئة بين أبويه .. ناتجة عن القراءة والكتابة منذ فترة مبكرة من حياته لدرجة أن أولى رواياته قد نشرها وهو فى الثالثة والعشرين من عمره تحت عنوان «ميدان النجم» وحصلت على جائزتى روجيه نيميه وفينيون الأدبيتين.

وقد أشار النقاد حين نشر هذه الرواية أن موديانو أديب يمزج بين عدة أدباء منهم كامى وكافكا، وتوماس من وهؤلاء النقاد أنفسهم عادوا بعد عشر سنوات ليجمعوا أنه قد صنع لنفسه عالما

«موديانيا» خاصا به. ولا مثيل له من قبل في دنيا الأدب خاصة بيير ديميرون الذى أسمى أدبه بالموديانية التى سنحاول إلقاء نظرة حولها من خلال عرض بعض رواياته وخاصة «شارع الحوانيت المعتمة» وهى أولى الروايات التي تترجم للكاتب إلي اللغة العربية. وقد حرصنا على تقديمها كاملة.

نشر موديانو خلال السنوات الأربعين الماضية قرابة عشرين رواية منها «دائرة الليل» ١٩٦٩، «شوارع الحزام» ١٩٧٢ التى حصلت على الجائزة الأدبية للأكاديمية الفرنسية . ثم «المنزل الحزين» ١٩٧٥ التى حصلت على جائزة المكتبات و«كتيب العائلة» ١٩٧٧ «شارع الحوانيت المعتمة» ١٩٧٨ ، «شباب» ١٩٨١، «أيام الأحد» في أغسطس ١٩٨٤ «مستودع الذكريات» ١٩٨٦، و«دولاب الطفولة» ١٩٨٩، «سيرك يمر» ١٩٩٢ و«محلب الربيع» ١٩٩٣، «بعيداً عن النسيان» ١٩٩٤، «دورا بروريه ١٩٩٧، «مجهولون» ١٩٩٩، «الجوهرة الصغيرة» ١٩٩٩، «حادث مرير» ٢٠٠٣، مسألة نسب» ٢٠٠٥ و«فى مقهى الشباب» ٢٠٠٧

وموديانو أديب هادئ الطباع. رقيق الاحساس يمزج بين النقاء والحياء. يقول : «لا أحب الحديث كثيرا. فأنا أدهش من هؤلاء الناس الذين يجيدون الكلام» ويري أن الكتابة شيء صعب. «لكننا نمارسها ونحن وحدنا لا يوجد أمامك إنسان ينتظر استجابة لما تقول». وهو ذو طبيعة متفائلة يحب الحياة ولا يشبه أحداً من الأدباء الذين يتسمون بعدم الاتزان الفكرى أو الاضطراب العصبى.فمن أحاديثه اليومية نراه يردد دوماً «لا شيء يهم». وهذه الجملة تعتبر المدخل إلى كل شخصياته. فأكثر أبطاله يتسمون بأنهم شخوص بلا جذور.. أرواح هائمة. مطاردون من ماض غامض. يبحثون دوماً عن هوية محددة لأنفسهم ففى رواية «المنزل الحزين» نري شمارا: رجلا ضائعاً، يشعر بالحنين إلي بلد لم يعرفه قط. والراوية فى هذه الرواية تائه يبحث عن مأوى له فى أحد

البنسيونات الصغيرة. لقد أصابته حرب الجزائر بلوثة. ونحن لا نعرف له اسماً لكن عمره ثمانية عشر عاماً. وهو يحاول دائماً العودة إلى ماضيه ليتذكر أحداثاً مرت عليه.

يرتدى هذا الرجل فوق عينيه نظارة ذات عوينة واحدة. يردد فى بعض الأحيان أن اسمه مزيج بين العربية والروسية : «شمس - لارا». يقضى ظهيرته فى مكان ظليل فى ميدان أشبه بأحلامه التى تعيش داخله . يلتقى بفتاة تدعى إيڤون . لكنه يكتشف أن لها أسماء أخرى عديدة: سوزان، اجلانتين.. كما يلتقى بطبيب يدعى «نعناع» فيشكلون ثلاثيا. يقضون أوقاتهم معا. سوزان وطبيبها يسكنان نفس المدينة. وهما يختلفان عن رفيقهما الثالث الذى يفضل وضع أزهار الأوركيد على موائده ويكسبون معاً فى مسابقة للأناقة. ويرحلون إلى البحيرة ويقومون بجولات فى سيارة دودج. ويتناولون غداءهم فى أحد الأندية الرياضية.

وتعيش إيڤون مع الطبيب قصة حب رقيقة . إلا أنها تختفى فجأة. فلا يعرف أحد إلى أين ذهبت. لم يبق سوى «نعناع» الذى يتحول إلى إطلال إنسان وتصبح الحياة مجموعة من السرابات التائهة . ويقول ماتيوجالى فى مجلة الاكسبريس - ٨ سبتمبر ١٩٧٥ - إن «لموديانو سحراً خاصاً خفياً. ففى كل صفحة من صفحات روايته نرى هذه الكاتب الآثم الذى يعيش فى خلسة المرتبك دوماً كأنه سراب. وكأنه يطارد هويته».

ومن جديد تختفى الأسماء فى رواية «كتيب العائلة» فيعود موديانو إلى الزمن الذى عاش فيه أبواه إبان الحرب العالمية الثانية. والراوى يصحبنا إلى ماضيه الغامض من خلال صور أبيه التى يقدمها لنا بعفوية من خلال ذكرياته. وفى رحلة عن هذه الصور نرى الابنة التى تعيش فى قرية نويلى أما الأبوان فيعيشان فى مكان صغير داخل إطار هادئ من الحياة العائلية. ويتحدث الراوى عن ملك مصر السابق فاروق وعن حلم شنفهاى

فى زمن الحروب وحول بعض من يتابعهم: مخرج سينمائى. ومؤلف موسيقى. كما يتحدث عن حريق مدينة القاهرة ويتحدث حول رجل التقى به مصادفة وهما خارجان من مشاهدة «طقوس اللعب» لجان رينوار.

وهذا الكتاب ليس رواية، وليس أقصوصة قصيرة. ولكنه حكايات شخصية: من أنا، ومن أين خرجت: وكيف؟ تلك الأسئلة التى يطرحها دائماً: «لقد تحدثنا كثيراً عن طفولتنا الصغيرة. إنها تنهك ماتبقى من المزيج المرعب». فبطلنا يتحدث حول أبيه وأمه. وحول هذا الكتيب الذى يعتبر شاهداً على حياة مؤلفه.

ومن خلال قرية نويلى إبان أحداث الحرب العالمية الثانية وأزمنة أخرى تتزاحم أشبه بالتى صلبها فوكنر فى أعماله. يحدثنا عن ميلاد ابنته الصغيرة زينا. وعن صورة زفاف والديه اللذين تزوجا تحت نير الاحتلال الألمانى. إنه يبحث الآن عن أب لا يعرف عنه شيئاً منذ عشر سنوات ولدت إبانها ابنته الصغيرة.

وهذه الرواية أقرب إلى السيرة الذاتية. ففيها يروى الكاتب كيف قام بكتابة سيناريو فيلم «لاكومب لوسيان» الذى أخرجه لوى مال عام ١٩٧٢: «لست كاتب سيرة ذاتية. فالواقع يستلزم إضافات تجعل الوقت كامناً لأن نجتازه. أنا واثق أننى عشت فى زمن الاحتلال طالما أننى أتذكر الأشخاص. وتفاصيل الكثير من الأحداث». وهذه العبارة هى مفتاح الرواية.

كما تحدث موديانو عن زوجته المولودة فى تونس. وعن سحر هذه البلاد. وعن أول لقاء بوالدها. يقول ماتيوجالى أيضاً: «عند قراءة هذه الرواية فسوف تلحظ أن عملية البحث عن جذور تتضح أكثر من أعماله السابقة، وإذا كانت أحداث الرواية تدور إبان الاحتلال النازى لفرنسا. فهى الفترة التى تسبق مولد المؤلف. وذلك من خلال علاقة بين أب وابنته والطفلة التى سوف يكون لها كل ماحصل عليه المؤلف فى حياته: أبناء شرعيون. مسكن مريح.

ومجتمع الأجداد والآباء رغم ما فيه من معاناة يختلف كثيراً عن علاقته بالماضى».

ومع «شارع الحوانيت المعتمة» تتضح كل سمات الموديانية: اللاجذور، التيه، الأسماء الغريبة الكثيرة التى لا معنى لها. البحث عن جذور. فبطلنا دون اسم . إنه يدعى تال. ولكن صاحب العمل أسماه جوى رولان، فقد ذاكرته منذ عدة سنوات. وامرأته دينيز كوروتر اختفت بعد أن فقدت الذاكرة هى أيضاً منذ عشر سنوات ورولان هذا يبحث عن نفسه من مكان لآخر. ومن بلدة لأخرى. فيسافر من الاتحاد السوڤييتى إلى الولايات المتحدة وفرنسا. ويعود أخيراً إلى إيطاليا.

وهو فى كل هذه البلاد يسمى اسما جديداً. ويهوى هواية جديدة. كما أنه يلتقى بالعديد من الشخصيات الذين يكشفون له عن معنى للأحداث شيئاً فشيئاً. ففى تاهيتى يتعرف إلى صورة أقرب صديقاته إليه. فيرى صورتها برفقة صديقتها أورلو التى انتحرت خوفاً من الشيخوخة. ويتعرف إلى جان ميشيل المصور الذى كان يقوم بتصوير زوجته دينيز من قبل. حينما كانت تعمل عارضة أزياء. وفى تاهيتى أيضاً يموت زميلة حزناً على انتحار زوجته.

وعندما يصل إلى ڤينسيا يخبره رئيسه بقصة رجل فى الأربعين من عمره يذهب إلى الشاطىء ويقاسم المصطافين أوقات فراغهم ويلتقط معهم صوراً. لكن أحداً لا يعرف اسمه ولا شيئا عن وجوده كما أن الجميع يتناسون أن هذه الصورة سوف تبلى يوماً.

وعندما يصل إلى روما – محطته الأخيرة – يتجه وهو الرجل ذو الخيال الواضح – كما يصف نفسه – وعلى سلم العمارة التى كانت تسكنها زوجته يتذكر كيف رأى وجهها الفوسفورى المشع. فهو مشهد صعب النسيان. وهنا يعرف هويته الحقيقية.

لكن موديانو لا يبلغنا بهذا الاسم. ولا بهوية بطلنا .. فالرواية تنتهى وكأن المؤلف قد أنهكته رحلة البحث مثلما فعل بطله . ولهذا

فهو يرفع قلمه فجأة عن الكتابة.

يقول جان كلودلامى فى جريدة فرانس سوار: «يعتبر موديانو ماهراً جداً فى إعادة تركيب الأيام الماضية؛ لأن المستقبل لا يتخذ فى نظره أى اعتبار. إن هدفه الوحيد هو البحث عن الزمن الضائع إنه «سيد الماضى» لعالم بروستى جاف. وهو يتابع أبحاثه على أمل باطل لتعديل مسيرة الزمن. وهو فى هذا الخطر المأتمى الذى لا يعود.

«فهنا، تتشابك الأسماء والمواعيد والأماكن قبل أن تتفكك كرسوم تنعكس على المرايا اللانهائية الإسقاطات. جدد الزمن بشكل غامض. ومع ذلك نجد وضوح جو الاحتلال الذى يتسلط على باتريك موديانو.

«فموديانو يتساءل دوماً عن كينونته. ونحن لانعرف من هى زوجته البلجيكية دينيز التى اختطفها أحد الأشقياء يوماً خلال عام ١٩٤٣ على حدود سويسرا. وهذه المرأة شبيهة بالأم الهاربة المرعوبة. والمنتمية إلى مكان من الصعب تحديده. ودوران سحرى لإنسانية صعبة الاقتناع.

وفى حديث طويل مع موديانو حول هذه الرواية يقول «عندما نكتب، فإننا نضطر أن نقوم بدور المشاهد والمستمع. وأنا لا أقول المتلصص. ولكن يمكن أن نلمس الواقع كى يمكننا أن نراقب وأن نعيش فى الأجواء وذلك بدلا من أن نرتبك عندما نضطر أن نقوم بدورنا».

«لى أسلوب يمكن أن يبدو أكثر فقرا دون أدنى تأثير. أنا مضطر إلى معاودة العمل ومعايشة ما أكتبه. فبعض الكتاب يتسمون بنقاء الطبيعة. إنهم قادرون على الكتابة. وليست فى هذه البساطة، فالكتابة لدى هى عمل صعب أكثر من النتائج التى تسفر عنها. أحاول أن أقول شيئاً أقل إمكاناً من تقديمى لعمل رقيق. فأسلوبى ليس شديد الثراء، وأنا قائل خاطىء سرعان ما يكتشف أمره.

ويجب عليّ أن أعيد قراءة ما أكتبه بسرعة».

أما فيليب لابرون الناقد والمخرج السينمائى المعروف - فيقول «كنا نخشى ألا يمس أسلوب موديانو، وبناءه الروائى سوى قلة من المثقفين أو تلك المجموعة التى كان ستندال يسميها «الحشد السعيد». لكن موديانو له ألوف من القراء. وعندما يتحدث حول نفسه يقول: أحب دائماً أن أستمع. أن أسأل عندما يعقد معى لقاء. أشعر كأننى مفتش شرطة موجود فى مكان الجريمة أعرف السؤال ولكنى لا أعرف الجواب. فعندما نكتب فإننا نحيا حياة الآخرين. وتبقى المثالية غائبة. وتمحى تماماً. فالكاتب هو كائن غير موجود. وحياة الكاتب تمر فوق ثلاثة أرباع موائد عمله فلا يعود لديه شىء يفعله سوى أن يراقب نفسه وهو يكتب..

ويقول بيير ديمون الذى أطلق على أدبه «الموديانية» فيقول إن موديانو هو التعبير عن الحياة. لكن ماهى الحياة..؟ إنها ليست سوى مجموعة صور عثر عليها فى علبة بسكويت قديمة.. وعقد زواج وجد فى كتاب. وصورة امرأة فى مفكرة وأرقام هواتف.. وأوراق لا تقول شيئاً لمن يعثر عليها..

مثل هذه الرواية المهمة لابد من ترجمتها على يد مترجم جيد وله أهميته مثل محمد عبد المنعم جلال الذى حرص على تقديمها فى أسلوب سلس وبسيط. رغم الأسماء الغريبة التى امتلأت بها أحداث الرواية وهو مترجم معروف ساهم فى تقديم العديد من الروايات الفرنسية إلى القارئ العربى. وقد سبق لروايات الهلال أن نشرت له العديد من هذه الترجمات الكاملة المهمة.

أنا لا شيء غير طيف واضح. كنت واقفاً فى ذلك المساء فى شرفة مقهى أنتظر أن ينقطع المطر، فقد انهمر فجأة فى نفس اللحظة التى فارقنى فيها هوت.

كنا قد تواجدنا قبل ذلك ببضع ساعات فى المكتب. جلس هوت خلف مكتبه الضخم كعادته، كان مرتديا معطفه وبدا كأنه على أهبة الرحيل. كنت جالساً أمامه، على المقعد الجلدى المخصص للعملاء. بينما المصباح اللبنى اللون يشع نوراً كان يبهرنى.

وقال هوت وهو يتنهد:

– حسنا ياجوى، انتهى الأمر.

كان لايزال هناك ملف فوق المكتب، ولعله ملف ذلك الرجل القصير الأسمر ذى النظرة المذعورة والوجه المنتفخ، الذى كلفنا بمراقبة زوجته. كانت تمضى ، بعد الظهر لملاقاة رجل قصير آخر أسمر اللون منتفخ الوجه، فى بنسيون بشارع فيتال المجاور لشارع بول دومر.

كان هوت يداعب لحيته وهو يفكر، لحية شعرها سنجابى قصير يغطى عارضيه. بدت عيناه الفاتحتان ضائعتين فى الفراغ. وعلى يسار المكتب، المقعد الخيزران الذى أجلس عليه أثناء العمل. وخلف هوت رفوف من الخشب الداكن تملأ نصف الجدار، اصطفت به دلائل شتى تضم كل ما يجب معرفته من معلومات عامة وتقاويم سنوية عن الخمسين عاماً الأخيرة. وكان هوت قد أخبرنى كثيراً أنها أدوات عمل لا غنى عنها، ولا يمكن أن يفترق عنها أبداً، فهى تعد أثمن وأغلى مكتبة يمكن الحصول عليها، لأنها تضم معلومات إضافية عن الأماكن والمجتمعات الشهيرة والأشخاص، تساعده فى أبحاثه وتحرياته.

قلت وأنا أشير إلى الرفوف بحركة عريضة من ذراعى:

– ماذا ستفعل بكل هذه الدلائل والتقاويم؟

– سأتركها مكانها ياجوى، فإننى سأحتفظ بعقد إيجار المكتب.

وألقى نظرة سريعة حوله. كان مصراعا الباب الذى يفضى إلى الغرفة الصغيرة المجاورة مفتوحين، وكنا نرى الأريكة المخملية القديمة والمدفأة والمرآة التى تعكس الدلائل والتقاويم ووجه هوت. وكثيرا ما انتظر عملاؤنا فى تلك الغرفة. وكانت على الأرض سجادة فارسية، ولصق الحائط، بجوار النافذة، أيقونة معلقة

– فيم تفكر ياجوى؟

– لا شىء . ستحتفظ بعقد الإيجار إذن؟

– نعم. وسوف آتى إلى باريس من وقت لآخر، وسيكون المكتب بمثابة استراحة لى.

بسط لى علبة سجائره وهو ويقول:

– أرى أن احتفاظى بالمكتب كما هو يهون على الأمر بعض الشىء.

كان قد مضى أكثر من ثمانية أعوام ونحن نعمل سوياً. أنشأ هو نفسه مكتب التحريات الخاصة المعروف باسمه فى سنة ١٩٤٧، وعمل معه أناس كثيرون قبلى طبعاً. كان دورنا يقوم على تقويم ما يسميه هوت بمعلومات اجتماعية. كان كل شىء يجرى، كما كان يقول دائماً، بين أناس من المجتمع.

– هل تعتقد أن بمقدورك العيش فى نيس؟

– طبعاً.

– ألن تشعر بالضجر؟

نفث دخان سيجارته وقال: يجب أن يتقاعد المرء ذات يوم ياجوى.

ونهض متثاقلا . كان يزن أكثر من مائة كيلو ، وطوله متر و٦٥ سنتيمترا.

– إن قطاري ينطلق في الساعة الثانية وخمس وخمسين دقيقة أمامنا ما يكفي من الوقت لتناول كأس.

وتقدمني إلى الغرفة التي تؤدي إلى البهو، وهذا الأخير بيضاوي الشكل، وجدرانه لونها أسمر باهت. وعلى الأرض حافظة محشوة بالأوراق بحيث يتعذر إغلاقها. وتناولها هوت وهو يسندها بيده:

– أليس معك حقائب؟

– أرسلت كل شيء مسبقاً.

فتح باب المدخل، وأطفأ نور البهو، ووقف خارج الباب، وتردد لحظة قبل أن يغلقه. وحزت اصطفاقته الآلية في قلبي، فقد كانت تدل على نهاية حقبة طويلة من حياتي. قال هوت:

– أراك مكتئباً ياجوي، ولك الحق.

أخرج من جيب معطفه منديلاً كبيراً، وجفف جبينه.

على الباب لاتزال اللوحة المستطيلة الرخامية السوداء موجودة، والتي كتب عليها هوت بحروف مذهبة ومفضضة:

ك . م. هوت.

تحريات خاصة.

قال: سأتركها مكانها.

ثم أدار المفتاح في القفل.

سلكنا شارع نيل حتى ميدان بيرير. كان الوقت ليلاً، ورغم أن الشتاء على الأبواب، فقد كان الجو دافئاً. وفي ميدان بيرير جلسنا في شرفة مقهى هور تنسياسي، وكان هوت يحب ذلك المقهى لأن مقاعده «منجدة». سألني بعد أن رشف جرعة من كأسه:

– وأنت ياجوي؟.. ماذا ستفعل؟

– أوه .. اهتديت إلى أثر.

– أثر؟
– نعم. أثر يقودني إلى ماضي.
نطقت بتلك العبارة بصوت مفخم مما جعله يبتسم.
– اعتقدت دائماً أنك سوف تهتدي إلى ماضيك ذات يوم.
كان جادا في قوله، مما أحدث أكبر الأثر في نفسي:
– ولكن، اصغ إلى جيدا ياجوى إنني أتساءل ما إذا كان لهذا الأمر أهميته حقاً.
ولزم الصمت. فيم كان يفكر؟ هل يفكر في ماضيه هو بالذات؟
– إليك بمفتاح للمكتب. يمكنك أن تأتي إليه من وقت لآخر سوف يسرني هذا.
وناولني مفتاحاً دسسته في جيبي.
اتصل بي في نيس تليفونيا، وأطلعني على كل ما تهتدي إليه من ماضيك.
ونهض وشد على يدي.
– هل تريد أن أرافقك إلى المحطة؟
– كلا . فإن ذلك يثير الحزن حقا.
وخرج من المقهى على عجالة، متجنبا أن يلتفت إلي. وشعرت عندئذ بالفراغ، فقد كانت لهذا الرجل أهمية كبيرة بالنسبة لي. وبدونه، وبدون مساعدته لا أدري ما الذي كان يمكن أن يحدث لي. وبدونه، وبدون مساعدته لا أدري ما الذي كان يمكن أن يحدث لي منذ عشر سنوات، عندما أصبت بفقدان الذاكرة ورحت اتخبط في الضباب. تاثر بحالتي، وبفضل صلاته العديدة حصل لي على أوراق تثبت شخصيتي الجديدة. قال وهو يعطيني مظروفاً كبيراً يحتوي على بطاقة شخصية وعلى جواز سفر.
– إليك هذا أنت الآن تدعى جوى رولان.
وهذا الخبر الذي قصدته لاستشارته لكي يستخدم ذكاءه في البحث عن

كل مايهدينى إلى حياتى الماضية أردف يقول:

– أى عزيزى جوى رولان. بدءًا من الآن لا تنظر إلى الماضى وفكر فى الحاضر وفى المستقبل. إنى أعرض عليك أن تعمل معى.

أحس نحوى بالعطف والميل لأنه هو الآخر، وقد عرفت ذلك فيما بعد، فقد إحساسه بذاته، وغرقت حقبة طويلة من حياته مرة واحدة دون أن يبقى منها دليل واحد يقوده إليها، أو أقل خيط يمكن أن يربطه بالماضى – لأنه ليس هناك ما يجمع بين هذا الشيخ العجوز المكدود الذى أراه يبتعد فى جوف الليل، بمعطفه البالى وحافظة أوراقه السوداء المحشوة، وبين لاعب التنس السابق والوسيم الأشقر، البارون البلطيقى كونستنتان فون هوت.

– ٢ –

– هالو ... مسيو بول سوناشيتزيه؟

– نعم أنا هو.

– جوى رولان على التليفون   أنت تعرف.

– نعم .. نعم   أعرف   أيمكن أن نلتقى.؟

– كما تشاء.

– ما رأيك فى الليلة؟.. فى نحو الساعة التاسعة، بشارع أناتول دى لافورج   أيوافقك هذا؟

– اتفقنا.

– سأكون فى انتظارك. إلى الملتقى.

وأعاد السماعة بخشونة، وتفصد جبينى بالعرق. كنت قد تناولت كأساً من الكونياك لأستمد بعض القوة. لماذا يشق على الأمر ولماذا أشعر بهذا الارتباك مع أن تناول سماعة التليفون وإدارة القرص لطلب رقم شىء عادى لا يدعو إلى كل هذا التخوف والانزعاج؟.

وفى بار شارع أناتول دى لافورج لم يكن هناك أحد من الزبائن، وكان

يقف خلف البار وهو مرتد ثياب المدينة. وقال:

– أتيت في الوقت المناسب ، فإن إجازتي الأسبوعية مساء كل أربعاء.

واقترب مني، وأمسكني من كتفي وهو يقول:

– فكرت فيك كثيرا.

– شكراً.

– إن أمرك يشغلني حقا.

وددت أن أقول له لا يشغل نفسه بي، ولكن الكلمات استعصت عليَّ، وقال:

– أعتقد أنك كنت تأتي برفقة رجل كثيرا ما رأيته في وقت من الأوقات. ولكن من هو؟

هز رأسه ثم قال متسائلاً:

– ألا يمكن أن تهديني إلى الأثر؟

– كلا

– لماذا؟

– لا أذكر شيئاً ياسيدي.

تصور أنني أمزح. ولما كان الأمر يتعلق بلعبة أو بلغز فقد قال:

– حسنا . سوف أتدبر الأمر وحدي. هل تترك لي حرية العمل؟

– إذا أردت.

– إذن ، سأمضي بك الليلة إلى صديق.

وقبل أن نخرج خفض بحركة جافة من يده سكين عداد الإنارة ثم أغلق الباب الخشبي السميك، وأدار المفتاح عدة مرات.

وكانت سيارته واقفة أمام الإفريز المقابل. سيارة سوداء جديدة. وفتح لي الباب في أدب وهو يقول:

– هذا الصديق يشرف على مطعم يشرح القلب، ويقع في منطقة فيل

داڤري وسان كلود.

– وهل نمضي الآن إلى هناك؟

– نعم

وانطلقنا في شارع أناتول دي لافورج، ومنه إلى شارع جرا أرميه. وأحسست فجأة بالرغبة في مغادرة السيارة ، فقد بدا لي الذهاب إلى فيل داڤري أمرا شاقاً. ولكن كان لابد من أن أتزود بالشجاعة.

اضطررت أن أغالب الخوف الذي يتملكني بلا داع حتى بلغنا سان كلود، لم أكن أعرف سونا شيتزيه هذا إلا معرفة سطحية، وخشيت أن يسوقني إلى كمين. ولكنني شيئاً فشيئاً، شعرت بالهدوء وهو يتكلم، فقد روى لي مراحل حياته المهنية المختلفة، قال إنه اشتغل في بادىء الأمر في الكباريهات الروسية، ثم في مطعم لانجر الكائن بحدائق شانزليزيه، ففندق كاستيل بشارع كامبون، وفي محلات كثيرة أخرى قبل إشرافه على بار شارع أناتول دي لافورج. وفي كل مرة، يلتقي بجان هورتير، الصديق الذي نمضي إليه بحيث إنه نشأت بينهما صداقة امتدت عشرين عاماً. وكان هورتير، هو الآخر، يتمتع بذاكرة قوية، وسوف يهتديان معاً إلى «اللغز» الذي أحاول الاهتداء إلى فك رموزه.

وكان سونا شيتزيه يسوق بحرص كبير. قطعنا المسافة لكي نصل إلى غايتنا في نحو ثلاثة أرباع الساعة.

كان المطعم عبارة عن بيت خشبي من طابق واحد وتغطي جانبه الأيسر شجرة صفصاف متدلية الأغصان وكانت قاعة المطعم كبيرة، أقبل من آخرها، حيث يسطع نور شديد، رجل بسط لي يده وهو يقول:

– أهلاً وسهلاً .. جان هورتير.

ثم تحول إلى سونا شيتزيه وخاطبه قائلاً:

– تحيتي لك يابول.

ومضى بنا إلى آخر القاعة، حيث منضدة بثلاثة مقاعد، في وسطها باقة من الزهور. أشار إلى باب نافذة كبيرة وقال:

– لديّ زبائن في البيت الآخر.. حفل زفاف.

وسألني سونا شيتزيه: هل سبق لك أن أتيت هنا؟

– كلا.

– أره المكان يا جان، إذن.

تقدمني هورتير إلى شرفة تطل على بركة، على يسارها قنطرة صغيرة مقببة على النمط الصيني، تؤدي إلى البيت الآخر، على الجانب الآخر من البركة. وكانت أبواب النوافذ تسطع بالأنوار، رأيت خلفها أزواجاً يرقصون، ينبعث إلينا من هناك بعض أنغام الموسيقى. قال:

– ليسوا كثيرين. يخامرني إحساس أن هذا الحفل سينتهي نهاية غير طيبة.

وهز كتفيه وقال: يجب أن تأتي في الصيف. إننا نقدم العشاء في الشرفة . والمنظر جميل.

عدنا إلى قاعة المطعم، أغلق هورتير باب النافذة وهو يقول:

– أعددت لكما عشاء بسيطا.

وأشار أن نجلس. وجلسا جنبا إلى جنب، أمامي.

وسألني هورتير:

أي نوع من النبيذ تحب؟

– كما تشاء أنت.

– شاتو بتروس.

قال سونا شيتزيه: فكرة طيبة يابول.

قام على خدمتنا شاب يرتدي سترة بيضاء، أما النور الذي ينبعث من المصباح الجداري فإنه يسقط عليّ مباشرة. أما الآخران فكانا في الظل، لا

ريب أنهما أجلساني هكذا لكي يتحققا مني بطريقة أفضل.

- ما رأيك ياجان؟

راح هورتير يتناول هلاميته وهو يرميني من وقت لآخر بنظرة حادة . كان أسمر البشرة، مثل سونا شيتزيه، وكان يصبغ شعره مثله. بشرة علاها النمش، ووجنتان رخوتان، وشفتان رقيقتان خبيرتان في الطعام . تمتم يقول:

- نعم ... نعم.

- طرفت عيناى بسبب النور. وصب لنا النبيذ وهو يقول:

- نعم ، نعم . أعتقد أنه سبق لي أن رأيت السيد.

قال سونا شيتزيه: إنها معضلة حقاً، فالسيد يرفض أن يهدينا إلي الطريق.

وبدا كأن الوحي هبط عليه فقد قال:

- ولكن لعله لا يريدنا أن نبحث في ذلك بعد . لعله يؤثر أن يبقى أمره سرا:

قلت مبتسماً كلا ... أبداً...

قدم الجرسون طبقاً من اللحم، وسألني هورتير:

- ما هي مهنتك؟

- اشتغلت طوال ثمانية أعوام في مكتب للتحريات الخاصة.. مكتب ك. م. هوت.

تأملني كل منهما في دهشة، وأردفت أقول:

- ولكن لا علاقة لهذا بحياتي السابقة، ولا أهمية له إذن.

قال هورتير وهو ينظر إليّ ملياً:

- هذا غريب. لا نستطيع أن نخمن سنده.

- بسبب شاربي، دون شك؟

قال سونا شيتزيه: قد تعرفك على الفور من غير شاربك.

ومد ذراعه، ووضع كفه تحت أنفي مباشرة ليخفي شاربي. وطرفت عيناه، كالرسام أمام نموذجه، قال هورتير:

– كلما أمعنت النظر إلى السيد، خامرني إحساس أنه ينتمي إلى جماعة من سمار الليل.

سأله سونا شيتزيه: ومتى ذلك؟

– أوه، منذ وقت طويل. لقد مضى زمن طويل لم نعمل فيه بالكباريهات يابول.

– هل تظن أن ذلك يرجع إلى زمن التاناجرا؟

حدجني هورتير، وكانت نظرته هذه المرة أكثر اتساعاً.

قال لي:

– معذرة ... هل لك أن تقف لحظة؟

امتثلت. ونظر إليّ من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي، ومن أخمص قدمي حتى أعلى رأسي، ثم قال:

– نعم، نعم . إنك تذكرني بزبون له نفس قامتك. انتظر.

رفع يده، وتجمد كما لو أراد أن يستبقي في ذهنه شيئاً يتعرض لأن يختفي من لحظة لأخرى، وقال:

– انتظر... انتظر ... انتظر أتذكر يابول.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة تدل على الانتصار. قال يخاطبني:

– يمكنك أن تجلس.

كان يتهلل فرحاً. وهو على يقين أنه سيقول شيئاً له أكبر الأثر. وصب النبيذ لي ، ثم لسونا شيتزيه بطريقة تكاد تكون رسمية ثم قال:

– نعم ، نعم ... كنت تأتي دائماً وبرفقتك رجل طويل القامة مثلك، بل لعله أطول منك.. ألا يدلك ذلك على شيء يابول؟

سأله سونا شيتزيه: ولكن عن أى زمن تتكلم؟

– عن زمن التاناجرا طبعاً.

عاد سونا شيتزيه يقول: رجل أطول منه؟ .. في التاناجر؟

– ألا تتذكر؟

– وهز هورتير كتفيه.

وما هى إلا لحظة حتى ارتسمت ابتسامة انتصار على شفتى سونا شيتزيه بدوره، وقال:

– تذكرت الآن.

– ماذا؟

– ستيوبا.

– هو ذلك. ستيوبا.

تحول سونا شيتزيه إلىّ وقال: هل كنت تعرف سيتيوبا؟

أجبت فى حرص: ربما.

قال هورتير: كنت تعرفه طبعاً، فإنك كنت تأتى معه فى أغلب الأحيان.. إننى واثق مما أقول.

– ستيوبا..

لم يكن هناك أى شك فى أنه اسم روسى، بالاستناد إلى الطريقة التى نطقه بها سونا شيتزيه.

– كان هو الذى يطلب دائماً من الأوركسترا أن تعزف لحن «ألا فيردى».. إنها مقطوعة قوقازية.

سألنى سونا شيتزيه وهو يضغط على يدى بشدة: هل تتذكر ذلك؟

راح يدندن باللحن وهو متألق العينين، وتحركت مشاعرى أنا الآخر، فقد بدا لى أننى أعرف هذ اللحن.

فى هذه اللحظة أقبل الشاب الذى قام على خدمتنا، واقترب من هورتير،

وأشار إلى شيء في آخر القاعة:

كانت هناك امرأة جالسة إلى إحدى الموائد، في الظل. ترتدي ثوباً أزرق فاتحاً، وكانت تدفن ذقنها في راحتيها. فيم كانت تفكر؟

– العروس!

سأله هورتير: ماذا تفعل هناك؟

أجابه الجرسون: لا أدرى.

– هل سألتها عما إذا كانت تريد شيئاً؟

– كلا . كلا . إنها لاتريد شيئاً.

– والآخرون؟

– طلبوا للمرة الثانية عشر زجاجات من النبيذ.

هز هورتير كتفيه وقال: هذا أمر لايعنيني.

أما سونا شيتزيه فقد عاد يسألني، غير مهتم بالعروس ولا بما يدور بين الرجلين.

– إذن .. ستيوبا .. هل تذكر ستيوبا ؟

وبدا شديد الاضطراب بحيث اضطررت أن أرد عليه وأنا أبتسم ابتسامة أردت أن تكون غامضة

– نعم ، نعم . قليلا.

وتحول عندئذ إلى هورتير وخاطبه قائلا في لهجة مهيبة

– إنه يتذكر ستيوبا

– هذا ما حسبته تماما

كان الجرسون لايزال واقفا أمام هورتير وهو بادى الانفعال، وقال :

– أظن لابد لنا من استخدام الغرف يا سيدى. ماذا يجب أن نفعل ؟

قال هورتير كنت موقنا أن هذا العرس سينتهى نهاية غير طيبة حسنا يا صاحبى، دع الأمور تسير، فهذا لايعنينا أبدا.

وكانت العروس لاتزال مكانها، لاتتحرك. قد عقدت ذراعيها . وقال هورتير

– أتساءل لماذا تجلس هناك بمفردها . مهما يكن فالأمر لايعنينى على الإطلاق .

وأتى بحركة بظهر يده، كما لو كان يطرد ذبابة وقال

– لنعد إلى موضوعنا .. أنت تعترف، إذن، بأنك عرفت ستيوبا؟

قلت ؟ وأنا أتنهد : نعم .

– أنت تنتمى إلى نفس الجماعة إذن .. والحق أنها جماعة مرحة يابول.

قال سونا شيتزيه بصوت كئيب أوه . لقد اختفوا جميعا .. فيما عداك يا سيدى. يسرنى أننى رأيتك واستطعت أن أحدد أمرك فأنت تنتمى إلى جماعة ستيوبا .. إننى أهنئك . كان زمنا أجمل من زماننا هذا بكثير .. وكان الناس، بصفة خاصة، نوى قيم أفضل من اليوم .

قال هورتير وهو يضحك كنا فى عنفوان الشباب فى ذلك الوقت.

سألته وقلبى يدق ومتى كان ذلك؟

قال سونا شيتزيه إننا نتخبط في تحديد الوقت .. مهما يكن، كان ذلك زمن الطوفان .

وبدا عليه الهم فجأة، وقال هورتير

– هناك صدفة عجيبة .

نهض . ومضى إلى بار صغير في ركن من الغرفة، عاد ومعه جريدة راح يقلب صفحاتها . ثم بسطها لى وهو يشير إلى العنوان جاءنا النص التالى

«توفيت مارى دى روزين فى الخامس والعشرين من أكتوبر وهى فى الثانية والتسعين من عمرها

وينعيها كل من ابنتها وأحفادها وصديقيها ستيوبا دى جاجوريف وجورج ساشز .

وستقام الجنازة فى مقبرة سانت جنفييف دى بوا فى الرابع من نوفمبر،

وستدفن في كنيسة المقبرة بعد ذلك .

وسيقام قداس اليوم التاسع في الخامس من نوفمبر في الكنيسة الأرثوذكسية الروسية بشارع كلود لوران رقم ١٩ بباريس .

وهذا النعي بمثابة دعوة رسمية ...».

قال سوناشيتزيه لايزال ستيوبا على قيد الحياة إذن .. أمازلت تراه ؟

قلت كلا .

– أنت على حق . يجب أن يعيش المرء في الحاضر ، قدم لنا كأسا أخرى يا جان.

– حالا

وبدا أنهما فقدا كل اهتمام بستيوبا وبماضيٍ ابتداء من تلك اللحظة ولكن، لم يكن لذلك أية أهمية، مادمت قد اهتديت أخيرا إلى أثر .

قلت وأنا أتصنع عدم الاهتمام هل يمكنك أن تعطيني هذه الجريدة؟

أجاب هورتير طبعا

وشربنا الأنخاب . وهكذا لم يبق مما سبق مني غير طيف في ذاكرة ساقيين، ثم إنه طيف نصف متوار في ذاكرة المدعو ستيوبا دي جاجوريف، وهما لايعرفان أخبار هذا الستيوبا منذ الطوفان على حد تعبير سونا شيتزيه .

سألني هورتير أنت مخبر خاص إذن؟

– لم أعد كذلك، فإن مخدومي تقاعد عن العمل .

– وأنت ؟ .. هل تستمر ؟

– على كل حال يسرني أن أراك ثانية. تعال هنا وقتما تشاء . ونهض، ومد لنا يده .

– إلى اللقاء يا جان .

– إلى اللقاء يابول.

ونظر هورتير إليَّ في ترو، وقال ببطء شديد الآن وقد وفقت ، فأنت

تذكرني بشئ.

سأله سونا شيتزيه بم ؟

– بعميل كان يعود كل ليلة في وقت متأخر جدا .. عندما كنا نعمل في فندق كاستيل .

هززت كتفي ولم أنطق .

وتأملني سونا شيتزيه بدوره، من أعلى رأسي إلى إخمص قدمي ثم قال:

– على كل من المحتمل أن تكون عميلا قديما بفندق كاستيل .

ابتسمت في ارتباك، أمسك سونا شيتزيه بذراعي واجتزنا قاعة المطعم، بدت أشد عتمة عما وصلنا. بينما اختفت العروس ذات الثوب الأزرق الفاتح من أمام المائدة. وفي الخارج، انبعثت نغمات الموسيقى، وسمعنا ضحكات آتية من الناحية الأخرى للبركة .

قلت لسونا شيتزيه إذا سمحت، هل تستطيع أن تتذكر الأغنية التى كان يطلبها دائما هذا الـ ..

– ستيويا ؟

– نعم .

راح يدندن بالنغمات الأولى ثم توقف وسألنى هل سترى ستيوبا ؟

– ربما

ضغط على ذراعي بقوة وقال قل له إن سونا شيتزيه لايزال يذكره.

ونظر إليَّ مليا، ثم قال : لعل جان على حق في الواقع، فإنك كنت من رواد فندق كاستيل . حاول أن تتذكر فندق كاستيل بشارع كامبون .

أدرت رأسي وفتحت باب السيارة. كان هناك شخص متكوم في المقعد الأمامي وقد ألصق جبينه بالزجاج .. وانحنيت . وعرفت فيه العروس. كانت نائمة وقد انحسر ثوبها الأزرق الفاتح حتى نصف فخذيها

قال سونا شيتزيه يجب أن نخرجها من هنا

هززتها في رفق، ولكنها كان غارقة في النوم، وطوقتها عندئذ من

خصرها وتمكنت من إخراجها من السيارة . وقلت
يجب ألا نتركها على الأرض .

حملتها بين ذراعيّ حتى الحافة، كان رأسها قد تدحرج فوق كتفي، بينما داعب شعرها الأشقر عنقي . وانبعثت منها رائحة عطر ثمين ذكرتني بشيء لا أعرف ماهو .

- ٣ -

كانت الساعة قد بلغت السادسة إلا الربع، طلبت من سائق سيارة الأجرة أن ينتظرني في شارع شارل ماري فيدور، وهو شارع جانبي صغير سلكته سيرا على قدمي حتى شارع كلود لوران، حيث تقع الكنيسة الروسية، وهي عبارة عن مبنى صغير يتكون من طابق واحد، وبنوافذه ستائر من «الكريشة» . وعلى الناحية اليمنى منه يوجد ممر بالغ الاتساع. ووقفت على الإفريز المقابل .

في أول الأمر، رأيت امرأتين تقفان أمام باب الكنيسة، من ناحية الشارع: إحداهما سمراء ذات شعر قصير وتضع شالاً مصنوعاً من الصوف الأسود، أما الأخرى فشقراء، وقد طلى وجهها بالمساحيق بصورة صارخة وعلى رأسها قبعة عريضة . وسمعتهما تتحدثان باللغة الفرنسية .

توقفت سيارة أجرة، وخرج منها رجل بدين أصلع الرأس تماما، تحت عينيه المشدودتين – كعيون المغول – تجاعيد كثيرة .. ومضى نحو الممر .

ومن اليسار، من ناحية شارع بوالو أقبلت جماعة من خمسة أشخاص. وتقدموا نحوي، تتقدمهم سيدتان طاعنتان في السن، تساندان شيخا كهلا بأذرعهما .. رجل أبيض جدا وهش جدا مما يعطيك انطباعا بأنه هيكل من الجبس الجاف، ويليهم رجلان يتشابهان، ليس هناك شك في أنهما أب وابن، يرتدي كل منهما حلة سنجابية اللون مخططة، أنيقة التفصيل .. يبدو الأب متجملا أما الابن فأشقر الشعر متموجه. في تلك اللحظة وقفت عربة أمام الجماعة وهبط منها شيخ أخر مشدود ورشيق الحركة، يلبس قبعة من

اللوادن، أشهب الشعر منتصبه، ذو هيئة عسكرية، ترى هل هو ستيوبا ؟

دخلوا الكنيسة من باب جانبي في آخر الممر . ووددت لو أن أتبعهم، لكنني خشيت أن ألفت نظرهم إليَّ . أحسست بقلق متزايد لمجرد إحساسي. أنني قد لا أتمكن من معرفة ستيوبا

توقفت سيارة أخرى، بعيدا شيئا ما، إلى اليمين ، خرج منها رجلان ثم امرأة . كان أحد الرجلين طويل القامة جدا ويرتدي معطفا كحلي اللون. اجتزت الشارع وانتظرتهما

اقتربوا، ازدادوا اقترابا . خُيل لي أن الرجل الطويل القامة قد تفرس فيَّ قبل أن ينعطف إلى الممر مع الآخرين . وخلف النوافذ ذات الألواح الزجاجية التي تطل على الممر كانت بعض الشموع موقدة، انحنى الرجل الطويل القامة لكي يمر من الباب، كان منخفضا جدا بالنسبة له . وكنت على يقين أنه ستيوبا

محرك سيارة الأجرة يدور، ولكن السائق لم يكن أمام عجلة القيادة. وكان أحد البابين مفتوحا مما يوحي أن السائق سيعود ما بين لحظة وأخرى. أين يمكن أن يكون قد ذهب؟ أدرت البصر حولي، قررت أن ألف بمجموعة البيوت التي أمامي بحثا عنه .

وجدته في مقهى قريب جدا بشارع شارون لاجاش . كان جالسا إلى إحدى الموائد أمام كأس من البيرة .

سألني قائلا هل مازال أمامك وقت طويل ؟

– أوه .. نحو عشرين دقيقة .

رجل أشقر، أبيض البشرة، بوجنتين ضخمتين وعينين زرقاوين بارزتين. أعتقد أنني لم أر في حياتي كلها رجلا بأذنين شحمتهما لحيمتان مثله .

– ألا يهمك أن تترك العداد دائرا ؟

قلت لا أهمية لذلك .

ابتسم في رقة، وسألته ألا تخشى أن يسرق أحد سيارتك .

هز كتفيه وقال : أنت تعرف ..

طلب شطيـرة بالكفـتـة، وراح يـأكلهـا في بطء وهو ينظر إلى بعـينين عابستين . وقال :

– ماذا تنتظر بالضبط ؟

– رجل يجب أن يخرج من الكنيسة بعد قليل .

–هل أنت روسي ؟

– كلا .

– هذه حماقة . كان يجب أن تسأله متى سيخرج، فهذا يكلفك أقل .

– لا أهمية لهذا .

طلب كأسا أخرى من البيرة وسألني : هل يمكن أن تبتاع لي جريدة.

وأتى بحـركـة من يده لكي يبـحث عن قطعة من النقـود، ولكنني أسـرعت أقول : أرجوك .

– شكرا لك . أتيني بالهريسون (١) .. وأشكرك مرة أخرى .

ومـشيت طويلا قبل أن أجد بائع جرائد بشـارع فرسـاي. والهريسـون جريدة ورقها أخضر فاتح .

بدأ قراءتها مقطب الجبين، وراح يقلب صفحاتها وهو يبل طرف سبابته بلسـانـه . ورحت أنا أنظر إلى ذلك الرجل الأشـقـر البـدين ذي العـينين الزرقاوين وهو يقرأ جريدته الخضراء .

ولم أجرؤ على قطع مطالعته . ونظر أخيرا إلى ساعة يده وقال

– يجب أن نمضي الآن .

وفي شـارع شـارلي مـاري ويدور جلس أمـام عـجلة القـيـادة بسـيـارته . وطلبت منه أن ينتظر . وقفت من جديد أمام الكنيسة الروسية، على الإفريز المقابل .

لا أحد . لعلهم انصرفوا أثناء ذلك. لو صح هذا فلم تعد هناك أية فرصة

---

(١) جريدة تهتم كثيراً بالحكايات المصورة، توقفت عن الصدور منذ سنوات.

لكى أهتدى إلى أثر ستيوبا دى جاجوريف، لأن هذا الاسم غير موجود فى دليل باريس. كانت الشموع لاتزال مشتعلة خلف ألواح النوافذ الزجاجية، من ناحية الممر. أأكون قد عرفت هذه المرأة المسنة التى يشيعونها إلى مقرها الأخير . وهل كنت صديقا لستيوبا ؟ لو صح هذا أيضا فلابد أنه قدمنى إلى أصدقائه وإلى مارى دى روزين هذه دون ريب . فقد كانت أكبر سنا منا جميعا فى ذلك الحين .

وفتح الباب فجأة، ذلك الباب الذى دخلوا منه والذى يؤدى بلاشك إلى المحراب الصغير حيث يتم الاحتفال، والذى لم أكف عن النظر إليه. خرجت منه المرأة الشقراء ذات القبعة العريضة، وتبعتها السمراء ذات الشال الأسود، ثم الأب والابن بحلتيهما السنجابيتى اللون والمخططتين، يساندان الرجل المسن الذى يبدو كالجبس الجاف، والذى كان يتكلم مع الرجل البدين الأصلع ذى الرأس المغولية، انحنى هذا الأخير وألصق أذنه تقريبا بفم محدثه، لم يكن صوت المسن سوى همس يكاد لايسمع . وتلاهم آخرون. انتظرت ستيوبا وقلبى يكاد يقفز بين ضلوعى.

وخرج أخيرا بين الآخرين. تميزه قامته المديدة، ومعطفه الكحلى اللون عن غيره، مما سمح لى ألا أفقده، لأنهم كانوا كثيرين. نحو أربعين شخصا على الأقل، أغلبهم مسنون، لاحظت أن هناك نساء شابات وطفلين، بقوا جميعا فى الممر وراحوا يتحدثون.

بدا الممر كأنه فناء مدرسة ريفية. وساعدوا المسن الذى يبدو كهيكل من الجبس على الجلوس فوق مقعد. وتقدم الجميع، كل بدوره لمواساته. من كان؟ أكان جورج ساشر الذى جاء ذكره فى النعى بالجريدة؟ أو أحد نبلاء الروس المهاجرين؟ .. لعله عاش هو ومارى دى لوزن قصة حب قصيرة فى بترسبورج أو على ضفاف البحر الأسود قبل أن ينهار كل شىء. ثم إن الرجل البدين الأصلع ذا العينين المغوليتين كان محور اهتمام هو الآخر، فى حين كان الأب والابن بحلتيهما السنجابيتى اللون والمخططتين يتنقلان من

جماعة لأخرى كما لو كانا قوادين يتنقلان من مائدة لأخرى. بدا كل منهما معجبا بنفسه . وكان الأب يضحك من وقت لأخر ويطوح برأسه إلى الخلف . وبدا لي عمله هذا غير لائق في هذه المناسبة.

أما ستيويا فكان يتبادل الحديث باهتمام كبير مع المرأة ذات القبعة العريضة. كان يمسكها من ذراعها من كتفها بود واحترام ولاريب أنه كان رجلا وسيما جدا في شبابه، كان في نحو السبعين من عمره . منتفخ الوجه بعض الشيء، عريض الجبهة، له أنف يدل على العزم والقوة، وتوحي هيئة رأسه بأنه من أصل نبيل. كان هذا شعوري على الأقل وأنا واقف على بعد.

من الوقت . ما يقرب من نصف ساعة، وهم لايزالون يتحادثون، خشيت أن يلحظ أحد وجودي وأنا واقف مكاني على الإفريز المقابل لكن ماذا عن سائق سيارة الأجرة؟ .. هرعت إليه في خطوات كبيرة في شارع شارلي ماري فيدور. كان المحرك لايزال دائرا، وكان جالسا أمام عجلة القيادة يقرأ جريدته الخضراء. وسألني

– حسنا ؟

قلت لا أدري . ربما ننتظر ساعة أخرى على الأقل .

– ألم يخرج صديقك من الكنيسة بعد؟

– بل خرج . ولكنه يتحدث مع بعض الناس.

– ألا تستطيع أن تطلب منه المجيء؟

– كلا .

راح يحدق فيّ بعينيه الواسعتين الزرقاوين بشيء من القلق فقلت

– لايشغلنك الأمر .

– هذا من أجلك. فإنني مضطر أن أترك العداد دائرا

وعدت إلى مكاني فوق الإفريز، أمام الكنيسة الروسية .

كان ستيويا قد تقدم بضعة أمتار، ولم يكن واقفا في نهاية الممر وإنما فوق الإفريز المقابل، مع المرأة الشقراء ذات القبعة العريضة، والرجل الأصلع

ذى العينين المغوليتين ورجلين آخرين .

اجتزت الشارع عندئذ ووقفت بجوارهم، وأنا أوليهم ظهرى. كانت ضيجة حديث الروس العشرة وهم يتبادلون عبارات المجاملات المختلفة تحبط بى . وذلك الطابع الأكثر وقارا والأشد رنينا عن الأصوات الأخرى، أكان صوت ستيويا؟ واستدرت . كان يضم المرأة ذات القبعة العريضة طويلا، ويهزها تقريبا . وقد توترت قسمات وجهه فى بسمة حزينة . ثم ضم بنفس الطريقة الرجل الأصلع ذا العينين المغوليتين، والآخرين، كل بدوره، ورأيت أن ساعة الانصراف قد دنت فأسرعت إلى سيارة الأجرة، وارتميت على المقعد وأنا أقول

- انطلق فورا .. إلى الكنيسة الروسية .

كان ستيويا لايزال يتحدث معهم . وسألنى السائق

- ماذا أفعل ؟

- هل ترى ذلك الرجل الطويل القامة ذا المعطف الكحلى؟

- نعم .

- يجب أن تتبعه إذا استقل سيارة .

تحول السائق نحوى . وحدق فى وقد لمعت عيناه

- أرجو أيها السيد ألا يكون فى الأمر أى خطر.

قلت : لاتقلق .

انفصل ستيويا عن الجماعة، ومشى بضع خطوات دون أن يلتفت وهز ذراعه. أما الآخرون فلبثوا فى أماكنهم ينظرون إليه وهو يبتعد وكانت المرأة ذات القبعة العريضة تقف بعيدا عنهم شيئا ما، متقوسة وتبدو بريشة قبعتها الكبيرة التى تتطاير مع الريح كتمثال فى مقدمة سفينة .

وأخذ وقتا طويلا لكى يفتح باب سيارته، وأظن أنه أخطأ فى المفتاح. وعندما جلس أمام عجلة القيادة، انحنيت نحو السائق .

وقلت له

– اتبع السيارة التي استقلها الرجل ذو المعطف الكحلي .

وتمنيت أن لا أكون قد انطلقت خلف أثر كاذب لأن لا شيء يؤكد أن ذلك الرجل هو ستيوبا دي جاجوريف حقا.

– ٤ –

لم تكن متابعته عسيرة أبدا، فقد كان يسوق على مهل . وعند بوابة مايو انطلق متجاوزا إشارة حمراء. ولم يجرؤ سائق سيارة الأجرة على أن يحذو حذوه، ولكننا لحقنا به في شارع موريس باريس. وتلاقت سيارتانا جنبا إلى جنب أمام إشارة حمراء أخرى. وألقى عليّ نظرة شاردة، كما يفعل جميع أصحاب السيارات عندما يلتقون في الزحام.

وأوقف سيارته أمام شارع ريشار والاس، أمام المنازل الأخيرة القريبة من كوبري بوتو والسين، ومشي في شارع جوليان بوتان. ونقدت سائق سيارة الأجرة أجره، وقال لي

– أتمنى لك التوفيق، توخ الحذر .

وخمنت أنه يتابعني بعينيه وأنا أمشي بدوري في شارع جوليان بوتان، ولعله أحس بالخوف عليّ .

كان الليل قد هب .. شارع ضيق تحده بيوت متلاصقة لا ترى منها غير واجهة واحدة من كل جانب، ومن أول هذا الشارع حتى آخره. كان ستيوبا يتقدمني بنحو عشرة أمتار. انعطف إلى اليمين في شارع إرنست ولو ازون، ودخل محلا للبقالة .

حان الوقت للتقرب إليه، وكان أمرا شاقا جدا بالنسبة لي، فأنا خجول بطبعي، تمنيت أن يظن بي الجنون، لأنني سوف أغمغم وأسوق له كلاما مفككاً، هذا إلا إذا عرفني على الفور، فسوف أتركه يتحدث عندئذ .

وخرج من المحل وفي يده كيس من الورق .

– مسيو ستيوبا دي جاجوريف ؟

بدت عليه الدهشة حقا، كان رأس كل منا في نفس المستوى الأمر الذي

ضاعف خجلي. ورد عليّ فقال

- نعم . ولكن من أنت ؟

كلا . إنه لم يعرفني. كان يتكلم الفرنسية بدون أية لكنة . وكان لابد أن أتزود بالشجاعة فقلت .

- منذ وقت طويل .. وأنا أريد أن أتحدث إليك .

- ولماذا أيها السيد ؟

- إنني أكتب .. أكتب كتابا عن الهجرة .

- هل أنت روسي ؟

كانت هذه هي المرة الثانية التي يلقى فيها هذا السؤال، فقد ألقاه على سائق سيارة الأجرة هو الآخر. ومن يدري، ربما كنت روسيا في الواقع .

- كلا .

- ومع ذلك فأنت تهتم بالهجرة؟

- إنني .. إنني أكتب كتابا عنها، وقد نصحني بعضهم بأن ألجأ إليك.. بول سوناشيتزيه ..

- سونا شيتزيه ؟

نطق الاسم باللهجة الروسية . كان ذلك جميلا، كتحفيف الريح في الأوراق

- اسم جيورجي لا أعرفه .

وقطب حاجبيه وعاد يقول : سونا شيتزيه ؟ كلا .

- ما كنت لأضايقك يا سيدي، ولكنني أريد أن ألقي عليهم بضعة أسئلة.

- بكل سرور .

وكان يبتسم ابتسامة حزينة

- الهجرة؟ .. إنها لمأساة .. ولكن كيف حدث أنك دعوتني ستيوبا ؟

- إنني .. إنني .. لا

- إن أغلب الذين يدعونني ستيوبا قد طواهم الموت .. والباقون يعدون

على أصابع اليد الواحدة .

– إنه هذا السوناشيتزيه.

– لا أعرفه .

– هل يمكنني أن ألقى عليك بضعة أسئلة ؟

– نعم ، ولكن ، هل لك أن ترافقني إلى مسكني ؟ سوف نتحدث .

وفي شارع جوليان بوتان عبرنا بوابة ثم اجتزنا ميدانا تحيط به مجموعة من البيوت، ودلفنا إلى مصعد خشبي بباب ذي مصراعين مزود بقضبان من الحديد . واضطررنا بسبب طول قامتينا وضيق المصعد أن نحني رأسينا وأن يبتعد كل منا عن الآخر حتى لاتتلامس جبهتانا . وكان يقيم في الطابق الخامس، في شقة من غرفتين . واستقبلني في غرفته، واستلقى فوق الفراش وهو يقول

– معذرة . ولكن السقف منخفض جدا، سوف نختنق إذا بقينا واقفين .

والواقع أنه لم يكن هناك بين السقف ورأس كل منا غير بضعة سنتيمترات . واضطررت أن أنحني، ثم إن باب المسكن نفسه كان منخفضا جدا، تصورت أن رأسه لابد قد اصطدم به كثيرا وهو يدخل مسكنه .

– تمدد أنت أيضا إذا أردت .

وأشار إلى أريكة من القطيفة الخضراء بجوار النافذة وقال :

– لاتنزعج . ستكون أفضل كثيرا وأنت متمدد. إنك، حتى إذا جلست فستظن أنك في قفص صغير جدا .. أجل، أجل .. تمدد .

وتمددت ..

كان قد أضاء مصباح أباجورة برتقالية اللون فوق طاولة بجوار الفراش، ينبعث منه نور خافت ، ويعكس ظلالا فوق السقف.

– أنت تهتم بالهجرة إذن ؟

– كثيرا

– ولكنك مع ذلك صغير السن جدا .

.. صغير السن! لم يخطر لى أبدا أننى قد أكون شابا صغير السن. وكانت هناك مرآة ذات إطار مذهب معلقة على الحائط، على مقربة منى. تأملت فيها وجهى .. صغير السن .

– أوه .. لست صغير السن إلى هذا الحد .

وسادت لحظة صمت ،كان كل منا متمددا فى جانب من الغرفة أشبه بمدخنى الأفيون . وقال

– إننى عائد لتوى من جنازة .. مما يؤسف له أنك لم تلتق بهذه السيدة المسنة التى ماتت . كان فى مقدورها أن تقول لك كل شىء . كانت واحدة من أشهر شخصيات الهجرة ..

– آه .. حقا !؟

– امرأة شجاعة جدا، أنشأت فى البداية صالونا صغيرا للشاى بشارع مون تابور .. وساعدت كل الناس .. كان ذلك صعبا جدا ..

جلس على حافة الفراش، محدودب الظهر، عاقدا ذراعيه .

– كنت فى الخامسة عشرة من عمرى فى ذلك الوقت. وإذا أحصيت الباقين فلن أجد منهم غير القليل .

قلت صدفة واتفاقا : لايزال هناك .. جورج ساشز.

– إنه لم يعمر كثيرا . هل تعرفه ؟

أهو ذلك الشيخ الذى يبدو كهيكل من الجبس ؟ .. أو ذلك الأصلع البدين المغولى الوجه ؟ وقال :

– اسمع . لا أستطيع الخوض فى كل هذا فإن ذلك يسبب لى حزناً كبيراً. أستطيع أن أريك صوراً فحسب.. والأسماء والتواريخ. لأننى أنسى كل شىء.

– أنت كريم حقاً لأن تزعج نفسك كل هذا الإزعاج .

ابتسم فى رفق وقال لدىّ صور كثيرة .. دونت خلفها الأسماء والتواريخ .. لأننى أنسى كل شىء .

ومضى وهو منحن إلى الغرفة المجاورة .. وسمعته يفتح درجا . عاد بعد قليل وفي يده علبة كبيرة حمراء، وجلس على الأرض، معتمدا بظهره على حافة الفراش وقال

– تعال واجلس بجانبي . سيكون هذا أسهل لرؤية الصور .

امتثلت . كان محفورا على غطاء العلبة اسم حلواني بحروف كبيرة وفتحتها . كانت مملوءة بالصور .

وناولني إياها، صورة صورة، وهو يذكر لي الاسم والتاريخ اللذين يقرؤهما على ظهر كل منها . وكانت قائمة مطة من أسماء تبدو أحيانا رنانة كرنين الطبول، وأحيانا أخرى شاكية، أو تكاد تكون مكتومة تروبرسكي، أوبرلياني، شريمتيف، جاليتزين، اريستوف، أوبولنسكي، بجراسيون، تشافتشيافيه.. وأحيانا يعود فيسترد مني الصورة وينظر مرة أخرى إلى الاسم والتاريخ .. صورة أخيه .. مائدة الدوق الأكبر في حفل بقصر باسك، بعد الثورة طبعا، وتألق الوجوه في صورة حفل غداء سنة ١٩١٤ .. وصور أحد فصول ليسيه إسكندر بيتر سبورج – صورة أخي الأكبر .

كان يناولني الصور بسرعة تزداد شيئا فشيئا ، ولم يعد ينظر إليها كما كان يفعل في بادئ الأمر. والظاهر أنه كان يود الفراغ من هذه المهمة بأسرع ما يمكن . وفجأة توقفت عند صورة ورقها أكثر سمكا من الصور الأخرى، ولم يكن على ظهرها أية إشارة .

قال يسألني

– ما الخبر ؟ .. أهناك ما يثير حيرتك أيها السيد ؟

كانت الصورة لشيخ مشدود ومبتسم، جالس على مقعد، وخلفه امرأة شابة شقراء ذات عينين فاتحتين وحولهم جماعات صغيرة، أغلبهم يبدون من ظهورهم. ونحو اليسار، بجوار المرأة الشقراء، رجل طويل القامة يرتدي ثيابا على غرار ثياب أمير جاليا، في نحو الثلاثين من عمره، أسود الشعر ، ذو شارب رفيع ظننت حقا أنه أنا

اقتربت من ستيوبا، كنا نعتمد بظهرينا على حافة الفراش وقد امتدت ساقانا فوق الأرض، ويكاد كتفانا يتلامسان.

وسألته

– قل لى .. من هؤلاء الناس؟

أخذ الصورة، وتأملها فى شىء من الإرهاق ثم قال

– هذا هو جيورجيادزيه ؟

وأشار إلى الشيخ العجوز، الجالس فوق المقعد ثم قال:

– كان فى قنصلية جورجيا بباريس إلى أن......

ولم يكمل عبارته، كما لو أننى فهمت ما يقصد أن يقول .

– أما هى فهى حفيدته . كانوا يدعونها جاى أورلو .. هاجرت إلى أمريكا مع أهلها

– هل عرفتها ؟

– ليس تماما .كلهم .. عاشت طويلا فى أمريكا

سألته فى صوت خافت وأنا أشير إلى صورتى وهو ؟

– هو ؟

وقطب جبينه وقال لا أعرفه .

– حقا ؟

– كلا . لا أعرفه

أخذت نفسا طويلا وقلت ألا ترى أنه يشبهنى ؟

نظر إلى جيدا ثم قال يشبهك ؟ .. كلا . لماذا ؟

– لا شىء .

وناولنى صورة أخرى قائلا

– آه .. إن للقدر أمورا عجيبة حقا

كانت صورة لطفلة ترتدى ثوبا أبيض لها شعر أشقر طويل ، التقطت فى أحد الشواطىء، لأنه كانت تظهر فيها بعض الكبائن، وجزء من بلاج وبحر،

كتب فى ظهرها بالحبر البنفسجى مارا أورلو، يالطا

– هل ترى ؟ .. هى بعينها .. جاى أورلو .. كانت تدعى مارا لم تكن قد اتخذت اسمها الأمريكى بعد

وأشار إلى المرأة الشقراء فى الصورة الأخرى، وكانت لاتزال فى يدى وقال

– كانت أمى تحتفظ بكل هذه الأشياء .

ونهض فجأة وقال هل ترى مانعا من أن نتوقف . إن رأسى يدور

ومر بيده على جبينه وأردف قائلا سأغير ثيابى. يمكنك أن تتناول العشاء معى إذا أردت .

بقيت وحدى ، جالسا على الأرض والصور مبعثرة حولى. وأعدتها إلى العلبة الكبيرة الحمراء، ولم أحتفظ إلا بصورتين وضعتهما فوق السرير، وهما الصورة التى أظهر فيها بجوار جاى أورلو والشيخ جيورجيادزيه، وصورة جاى أورلو وهى طفلة فى يالتا . ونهضت ، ومضيت إلى النافذة.

كان الوقت ليلا . وكانت النافذة تطل على ميدان آخر تحيط به بيوت، وفى آخره نهر السين، وإلى اليسار، كوبرى بوتو، والجزيرة التى تمتد، وصفوف من السيارات تقطع الكوبرى. ونظرت إلى كل واجهات البيوت وإلى النوافذ المضاءة، كلها كالنافذة التى أقف أمامها، ووجدت فى متاهة تلك البيوت والسلالم والمصاعد، بين مئات الخلايا رجلا قد يكون .....

ألصقت جبينى بالزجاج .. هناك، كل مدخل من مداخل تلك البيوت كان مضاء بنور أصفر يلمع طوال الليل .

قال لى إن المطعم على مقربة .

أخذت الصورتين اللتين وضعتهما فوق السرير وقلت

– مسيو جاجوريف .. هل تتكرم وتعيرنى هاتين الصورتين؟

– إننى أعطيهما لك .

ثم أشار إلى العلبة الحمراء وقال بل إننى أعطيك كل الصور.

- ولكن .. إننى.....

- خذها

كان صوته مفعما بلهجة الأمر بحيث لم يسعنى إلا الامتثال .

وعندما غادرنا المسكن، كانت العلبة الحمراء تحت إبطى .

وخرجنا إلى الشارع واجتزنا رصيف الجنرال كونيج

وهبطنا سلما حجريا، وهناك، على شاطئ السين، يقوم مبنى من الطوب، وفوق الباب لافتة .. «بار ومطعم الجزيرة» . ودخلنا . قاعة ذات سقف منخفض بها موائد عليها مفارش من الورق الأبيض ومقاعد من الخيزران . ويظهر نهر السين وأنوار بوتو من النوافذ. وجلسنا فى آخر القاعة . ولم يكن هناك من الزبائن غيرنا.

وضع ستيوبا يده فى جيبه وأخرج منه الكيس الذى اشتراه من محل البقالة . وسأله الجرسون

- كالمعتاد ؟

- أجل .

وقال الجرسون وهو يشير إلى : والسيد ؟

- سيتناول السيد نفس الشىء مثلى .

قدم لنا الجرسون طبقين من السمك المدخن ، وصب لنا فى قدحين صغيرين جدا مياهاً معدنية . وأخرج ستيوبا من الكيس الذى كان قد وضعه فوق المائدة خيارا ، اقتسمناه . وسألنى

- هل يروق لك هذا ؟

- نعم .

وكنت قد وضعت العلبة الحمراء فوق مقعد بجوارى وسألته

- ألا تريد حقا الاحتفاظ بكل هذه الصور ؟

- كلا . إنها لك الآن . وإننى أعطيك الراية .

وأكلنا فى صمت . ومر زورق قريبا منا بحيث تمكنت من أن أرى من

إطار النافذة راكبيه . حول مائدة ، يأكلون هم الآخرون

وقلت وهذه الجاى أورلو .. هل تعرف ماذا حدث لها ؟

– جاى أورلو ؟ .. أظن أنها ماتت .

– ماتت ؟

– يخيل لى ذلك .. التقيت بها مرة أو مرتين .. لم أكن أعرفها جيدا كانت أمي صديقة للشيخ جورجيا دزيه .. مزيد من الخيار ؟

– شكرا لك

– أظن أنها عاشت حياة مضطربة جدا فى أمريكا

– ألا تعرف من يمكن أن يزودنى بمعلومات عنها ؟

نظر إلىّ فى رفق وقال أى صديقى العزيز ، لا أعرف أحدا . قد تجد شخصا ما فى أمريكا

ومر زورق آخر ، داكن وبطىء كما لو كان مهجورا

– إننى أتناول موزة دائما بعد الأكل كنوع من الحلوى . وأنت ؟

– وأنا أيضا

وأكلنا الموزتين . سألته وأهل هذه الجاى أورلو ؟

– لا ريب أنهم ماتوا فى أمريكا . إن الناس يموتون فى كل مكان ، كما تعرف .

– ألم يكن لجيورجيادزيه أقارب آخرون فى فرنسا ؟

هز كتفيه وقال ولكن لم كل هذا الاهتمام بجاى أورلو ؟ .. هل كانت أختك ؟

ابتسم فى رفق مرة أخرى وسألنى أتريد قهوة ؟

– كلا شكرا

– ولا أنا

أراد أن يدفع الحساب ولكننى سبقته ، عندما خرجنا من مطعم الجزيرة، أمسك بذراعى لكى يصعد درجات الرصيف . كان الضباب

قد انتشر.. ضباب خفيف وبارد يملأ رئتيك بطراوة تعطيك إحساسا أنك تسبح في الهواء . وفوق الرصيف ، ميزت بصعوبة المباني ، على بعد بضعة أمتار.

وأرشدته ، كما لو كان أعمى ، حتى الميدان الذي بدت فيه السلالم بقعا صفراء ، وتدل على أنها نقطة الاستدلال الوحيدة . وشد على يدي .

رأيته يدخل بهو البيت المضاء ، وتوقف . وأومأ إليّ بيده . وبقيت واقفا مكاني ، جامدا ، والعلبة الكبيرة الحمراء تحت إبطي ، كطفل عائد من حفل عيد ميلاد . كنت على يقين أنه قال لي ، في تلك اللحظة شيئا ، ولكن الضباب كتم رنة صوته

— ٥ —

بطاقة بريدية من نيس .

عزيزي جوي . تلقيت خطابك . والأيام هنا تتشابه ، ونيس مدينة جميلة يجب أن تأتي لزيارتي . وإنه لأمر غريب .. يحدث لي أن ألتقي في منعطف أحد الشوارع بشخص لم أره منذ ثلاثين سنة ، أو بآخر كنت أعتقد أنه في عداد الموتى ، ويتملكنا جميعا الفزع إن نيس مدينة أشباح وأطياف أرجو ألا أنضم إليهم وشيكا

أما عن المرأة التي تبحث عنها فأقل ما هناك هو أن تتصل تليفونيا ببرناردي ماك ماهون ، فإنه لا يزال يحتفظ بعلاقات طيبة مع أناس من مختلف المكاتب الخاصة بالتحريات والاستقصاءات وسيسره أن يؤدي لك أية خدمة .

وفي انتظار زيارتك لي في نيس ، أرجو أن تتقبل خالص تحياتي أيها الصديق العزيز

حاشية أنت تعرف أن مكتبي بباريس تحت تصرفك .

- ٦ -

٢٣ أكتوبر سنة ١٩٦٥

الموضوع مارا أورلو المعروفة باسم جاى أورلو

ولدت بموسكو «روسيا» أبوها كيريل أورلو وأمها أيرين جورجيادزيه .

الجنسية لا وطن لها ، فحكومة اتحاد الجمهوريات السوفيتية لا تعترف بأنها من مواطنيها ، لا هى ولا أبويها ، وقد جاءت الآنسة أورلو إلى فرنسا فى سنة ١٩٣٦ ، قادمة من الولايات المتحدة .

تزوجت فى الولايات المتحدة بمستر والتر بلانت ثم طلقت منه أقامت بالتعاقب فى

فندق شاتوبريان بشارع السيرك رقم ١٨ بباريس «الحى الثامن» .

شارع مونتين رقم ٥٣ بباريس «الحى الثامن»

شارع الماريشال لويوتى رقم ٢٥ بباريس «الحى السادس عشر»

كانت تعمل راقصة فى الولايات المتحدة قبل قدومها إلى فرنسا لم يكن لها مورد معروف فى باريس رغم أنها كانت تعيش فى بذخ ماتت سنة ١٩٥٠ فى مسكنها رقم ٢٥ بشارع الماريشال لويوتى بباريس «الحى السادس عشر» على أثر تناول جرعة كبيرة من الحبوب المهدئة . ومستر والدوبلانت ، زوجها السابق يقيم فى باريس منذ سنة ١٩٥٢ وزاول عمله فى مؤسسات مختلفة كعازف على البيان ، وهو مواطن أمريكى ولد بشيكاغو سنة ١٩١٠ .

بطاقة إقامة رقم ٨٢٨ ك هـ ٥٢٤ .

هذا البيان مكتوب على الآلة الكاتبة ومرفق به بطاقة باسم جان بيير برناردى بها النص التالى

هذه هى المعلومات المتاحة . أطيب الأمنيات ، وتحياتى لهوت .

- ٧ -

على الباب الزجاجى لبار فندق هيلتون بطاقة تقول أن والدوبلانت يعزف

على البيان كل يوم من الساعة الثامنة حتى الواحدة والدقيقة العشرين .

كان البار مزدحما بالرواد . ولم يكن هناك غير مقعد واحد شاغر أمام مائدة يجلس إليها رجل ياباني يلبس نظارة بإطار من الذهب، لم يفهمني عندما انحنيت نحوه لكي أستأذنه في الجلوس وعندما جلست أخيرا لم يبد أي اهتمام .

يدخل زبائن أمريكيون أو يابانيون ويستفسرون ويتبادلون الحديث في صوت يزداد علوا .. يقفون بين الموائد ، البعض في يده كأس ، ويتكئون على مساند المقاعد .. وامرأة شابة منحنية فوق ركبتي رجل أشهب الشعر .

أقبل والدوبلانت متأخرا ربع ساعة ، وجلس أمام البيان . وهو رجل قصير ، بدين ، عريض الجبين ، له شارب صغير ويرتدي حلة سنجابية اللون، أدار رأسه في أول الأمر وألقى حوله نظرة شملت الموائد التي غصت بالناس ، وداعب مفاتيح البيان في رفق ثم راح يضرب بعض الأنغام كيفما اتفق . وكنت محظوظا إذ جلست إلى إحدى الموائد القريبة منه .

وبدأ فعزف لحنا ، أعتقد أنه كان لحن «على أرصفة باريس» ولكن صخب الأصوات والضحكات غطى على الموسيقى بحيث لم يمكن سماعها بوضوح. وأنا نفسي ، رغم قربي من البيان ، لم أستطع تلقي كل النغمات . واستمر والدوبلانت في عزفه غير عابئ بأي شئ . وتملكني الأسى من أجله ، وقلت في نفسي إنه في حقبة من حياته استمع إليه الناس في اهتمام كبير . ولا ريب أنه اعتاد بعد ذلك على هذا الصخب المستمر الذي يخنق موسيقاه . ما عساه يقول عندما أنطق باسم جاي مارسو ؟ هل يخرجه هذا الاسم لحظة من عدم الاكتراث الذي يتابع به معزوفته ، أم تراها لم تعد توحي إليه بأي شئ ، كتلك الأنغام التي لا تستطيع التغلب على ضجيج الأحاديث .

راح البار يخلو شيئا فشيئا ، ولم يعد باقيا غير بعض اليابانيين ذوي النظارات الذهبية وأنا . وفي آخر الصالة المرأة الشابة التي رأيتها تجلس فوق ركبتي الرجل الأشهب الشعر . تجلس الآن بجوار رجل بدين أحمر

الوجه يرتدي حلة زرقاء . كانا يتحدثان بالألمانية وبصوت مرتفع جدا . كان والدو بلانت يعزف لحنا بطيئا كنت أعرفه تماما

وتحول إلينا وقال في صوت جاف به لكنة أمريكية خفيفة

– سيداتي ، سادتي ، هل تريدون أن أعزف لحنا خاصا

لم ينطق اليابانى الجالس بجوارى ، وبقى جامدا ، أملس الوجه خشيت أن أراه يهوى من مقعده عند هبوب أول تيار هوائى . فقد بدا أشبه بجثة محنطة .

وقالت المرأة الشابة التى فى آخر الصالة في صوت أجش

– أعزف لنا لحن «ساج واروم» .

هز بلانت رأسه هزة خفيفة وبدأ يعزف المقطوعة المطلوبة . وبدأ نور البار يخفت كما يحدث فى بعض المراقص عندما يبدأ الراقصون رقصة بطيئة . وانتهز الرجل الفرصة لكى يتعانقا ، تسللت يد المرأة فى فتحة قميص الرجل ذى الوجه الأحمر ، وراحت تتحسس صدره هبطت إلى أسفل . عكست نظارة الرجل اليابانى ذات الإطار الذهبى انعكاسات سريعة . وبدأ بلانت يهتز كما لو كان رجلا آليا ، وهو يضرب بأصابعه باستمرار ودون انقطاع

فيم كان يفكر بينما الرجل الأحمر الوجه خلفه ، يتجسس فخذى المرأة الشقراء، واليابانى المحنط فى مكانه لا يتحرك . كنت على يقين من أنه لا يفكر فى شىء . إنه يغرق فى فتور يزداد شيئا فشيئا

غادر الرجل الأحمر الوجه والمرأة الشقراء البار لكى يذهبا إلى غرفة فى بنسيون بالتأكيد، وقد جذبها من ذراعيها بحيث أوشكت أن تتعثر . ولم يعد هناك غيرى وغير اليابانى .

وتحول بلانت إلينا من جديد وقال بصوته الأجش

– أتريدان أن أعزف مقطوعة أخرى .

لم ينطق اليابانى ، أما أنا فقلت له :

– اعزف لنا مقطوعة «ماذا بقى من حبنا » إذا سمحت .

عزف تلك المقطوعة في بطء غريب . وبدأ اللحن محدودا كما لو ساخ في طين مستنقع تفلت منه النغمات في صعوبة شديدة . وكان يتوقف عن العزف من وقت لآخر، كرجل أعياه السير وراح يتعثر . نظر إلى ساعته . نهض فجأة وأحنى رأسه نحونا وقال

– الساعة الآن الواحدة وعشرون دقيقة أيها السادة . عمتم مساء :

وخرج . وتبعته ، تاركا الياباني محنطا في قبو البار

وعبر الرواق ثم اجتاز البهو المقفر ، ولحقت به وقلت

– مسيو والدو بلانت .. أريد محادثتك .

– في أي موضوع ؟

وألقى إليّ نظرة رجل طريد

– بخصوص شخص عرفته .. امرأة تدعى جاى .. جاى أورلو .

تسمرت قدماه في البهو وقال جاى !

واتسعت عيناه كما لو أن نور المصباح سقط على وجهه

– هل .. هل عرفت جاى ؟

– كلا

خرجنا من الفندق . هناك جماعات من الرجال والنساء في ثياب السهرة ألوان صارخة وثياب طويلة من الساتان الأخضر والأزرق السماوى والاسموكنج الأحمر الرماني .. تنتظر سيارات الأجرة

– لا أريد أن أزعجك .

قال في شيء من القلق أنت لا تزعجني .. مضى وقت طويل جدا لم أسمع فيه عن جاى .. ولكن من أنت ؟

– ابن عم لها .. أريد أن أعرف بعض التفاصيل بخصوصها

– تفاصيل ؟

وحك جبينه بسبابته ماذا تريد أن أقول لك ؟

كنا قد انعطفنا إلى شارع ضيق بجوار الفندق ، يمتد حتى نهر السين

وقال

- يجب أن أعود إلى مسكني .
- سأرافقك .
- أأنت حقا ابن عم لجاى ؟
- نعم . والأسرة تريد أن تعرف بعض التفاصيل المتعلقة بها
- لقد ماتت منذ وقت طويل .
- أعرف ذلك .

كان يمشي في خطوات سريعة ، وكنت أجد مشقة في متابعته . وحاولت جهدى أن أبقى في مستواه . وبلغنا رصيف برانلى ، وقال وهو يشير إلى نهر السين

- إنني أقيم في الضفة المقابلة .

ومشينا فوق كوبرى بير حكيم ، وقال

- لن أستطيع أن أزودك بالكثير ، فقد عرفت جاى منذ وقت طويل .

أبطأ في سيره، وكأنه شعر بأنه أصبح في أمان . لعله أسرع في سيره حتى الآن ظنا أن هناك من يتبعه ، أو ربما لكي يتخلص مني . قال

- لم أكن أعرف أن لجاى أقارب .
- بل لها أقارب .. من ناحية جيورجيانزيه .
- عفوا
- أسرة جيورجيانزيه .. كان جدها لأمها يدعى جيورجيانزيه .
- آه .. فهمت .

توقف . ثم مضى واستند بظهره على السور الحجرى للكوبرى . لم أستطع أن أحنو حنوه ، خشيت أن أشعر بالدوار ، بقيت واقفا أمامه . قال مترددا

- أنت تعرف .. كنت قد تزوجتها .
- أعرف .

- كيف عرفت ذلك ؟

- كان مسجلا في أوراق قديمة .

- ذهبنا معا إلى أحد الكباريهات بنيويورك . كنت أعزف على البيان . طلبت مني أن أتزوجها لأنها كانت تريد البقاء في أمريكا فحسب ، ولكي تتجنب المشاكل مع إدارة الهجرة .

وهز رأسه عند هذه الذكرى ، ثم عاد يقول :

- كانت فتاة غريبة الأطوار . وبعد ذلك عاشرت لوكي لوتشيانو (١) .. تعرفت إليه في كازينو بالم آيلاند .

- لو تشيانو ؟

- نعم .. لوتشيانو .. وكانت برفقته عندما ألقى البوليس القبض عليه في أركنساس ، ثم التقت بعد ذلك برجل فرنسي ، وعرفت أنها ذهبت معه إلى فرنسا

وومضت عيناه .. وابتسم لي .

- يسرني أيها السيد أنني أستطيع التحدث معك عن جاي .

انطلق ترام فوقنا في طريقه إلى الضفة اليمنى للسين ، ثم آخر في الجهة المضادة . وغطى صوتهما على صوت بلانت . كان يتحدث إليّ .. عرفت ذلك من حركات شفتيه .

- ..... أجمل فتاة عرفتها

هذه الكلمات القليلة التي استطعت سماعها سببت لي يأسا كبيرا . كنت أقف ليلا ، في منتصف الكوبري ، مع رجل لا أعرفه ، أحاول أن أنتزع منه بعض نقاط قد تفيدني في ماضيّ بالذات . ولكن ضجيج الترام كان يمنعني من سماعه ...

- ألا تريد أن نمشي قليلا ؟

ولكنه كان غارقا في أفكاره بحيث لم يرد عليّ . ومما لا ريب فيه أنه مر

(١) اسم أحد كبار المافيا في الخمسينيات .. عاش في إيطاليا والولايات المتحدة.

قت طويل جدا لم يسمع فيه عن جاى أورلو ، تلك التى تعود ذكراها من جديد وتلفه كما لو كانت نسمة بحرية . وبقى مكانه مستندا إلى سور لكوبرى ...

- ألا تريد حقا أن نمشى .

- هل عرفت جاى ؟ ... هل التقيت بها ؟

- كلا .. ولهذا بالذات أريد أن أعرف بعض النقاط عنها

- كانت شقراء ، بعينين خضراوين ... شقراء فريدة .. كيف أقول لك شقراء شعرها يميل إلى اللون الرمادى .

شقراء يميل شعرها إلى اللون الرمادى ! .. ولعلها لعبت دورا هاما فى حياتى .. يجب أن أنظر إلى صورتها جيدا .. وشيئا فشيئا سيتضح كل شئ .. إلا إذا اهتديت إلى شئ ما يقودنى إلى أثر معين ، وإنها لفرصة كبيرة حقا إذ عثرت على هذا الوالدو بلانت

أخذت بذراعه ، لأنه لم يكن بوسعنا البقاء فوق الكوبرى . واجتزنا رصيف باسى . وسألته

- هل رأيتها فى فرنسا بعد ذلك ؟

- كلا .. عندما قدمت إلى فرنسا كانت قد ماتت .. انتحرت .

- لماذا ؟

- كانت تقول لى أحيانا إنها تخشى الشيخوخة

- متى رأيتها آخر مرة ؟

- بعد قصة لوتشيانو .. التقت بذلك الفرنسى .. وتقابلنا بضع مرات فى ذلك الوقت .

- وأنت ؟ .. هل عرفت ذلك الفرنسى ؟

- كلا .. قالت لى إنها ستتزوج به لكى تحصل على الجنسية الفرنسية كانت هذه طريقتها للحصول على جنسية .

- ولكنكما كنتما مطلقين ؟

– طبعا .. دام زواجنا ستة شهور .. بالذات لتهدئة إدارة الهجرة التى أرادت طردها من الولايات المتحدة .

كان ينبغى أن أجمع أفكارى حتى لا أفقد تسلسل قصته لاسيما وأن صوته كان شديد الخفوت .

– جاءت إلىَّ فرنسا ولم أرها بعد ذلك إلى أن علمت بانتحارها

– وكيف عرفت ذلك ؟

– من صديق أمريكى كان يعرف جاى ، كان فى باريس فى ذلك الوقت ، وقد أرسل إلى قصاصة من جريدة

– هل احتفظت بها ؟

– نعم لا ريب أنها فى أحد الأدراج بمسكنى .

بلغنا أولى حدائق التروكاديرو .. كانت النافورات متألقة، امتلأ المكان بحركة كبيرة .. سياح متجمعون حول النافورات وفوق كوبرى بيفا . كمساء يوم سبت من أيام أكتوبر، وسيل من المتنزهين بسبب دفء الجو ، والأشجار لم تفقد أوراقها بعد . وكان يبدو أنه مساء سبت من أيام الربيع

– إننى أقيم هنا

تجاوزنا الحدائق، دلفنا إلى شارع نيويورك . وهناك تحت أشجار الرصيف أحسست أننى أعيش حلما بغيضا . لقد قضيت حياتى حتى الآن، ولم أعد غير طيف يطير مع نسيم مساء يوم سبت دافئ . لماذا أريد إعادة ربط علاقات انقطعت ، وأبحث عن مسالك مسدودة منذ وقت طويل . والرجل القصير البدين الذى يسير بجوارى .. وجدت صعوبة كبيرة فى الاعتقاد بأنه حقيقة

– هذا غريب أننى أتذكر اسم الفرنسى الذى عرفته جاى فى أمريكا

سألته فى صوت واجف وما اسمه ؟

– هوارد .. كان هذا لقبه وليس اسمه الأول .. انتظر .. هوارد دى ..

وتوقفت وانحنيت نحوه وسألته

– هوارد دى .. دى ماذا ؟

– دى .. دى لوز .. هوارد دى لوز .. هوارد دى لوز . لقـــد أثار هذا الاسم دهشتى ، فنصفه إنجليزى والنصف الآخر فرنسى

– واسمه الأول ؟

– أما هذا

وأتى بحركة تدل على عجزه ، فسألته

– ألا تعرف كيف كان شكله ؟

– كلا ..

لسوف أريه الصورة التى تظهر فيها جاى مع العجوز جيورجيادزيه وذلك الذى كنت أعتقد أنه أنا . قلت

– وماذا كانت مهنة هذا الهوارد دى لوز ؟

– قالت جاى إنه ينتمى إلى طبقة النبلاء .. لم يكن يزاول أي عمل .

ضحك ضحكة قصيرة ثم قال ولكن ، انتظر إننى أتذكر أقام فترة طويلة من الوقت فى هوليوود .. قالت لى جاى إنه أمين سر الممثل جون جيلبرت

– أمين سر جون جيلبرت (١)

– نعم . فى آخر أيام جون جيلبرت.

كانت السيارات تنطلق مسرعة فى شارع نيويورك دون أن نسمع محركاتها . وكان هذا يزيد إحساسى بالحلم الذى كنت أحسه . كانت تنطلق فى صوت مكتوم مائع كما لو كانت تنزلق فوق الماء . وبلغنا أول القنطرة التى تتقدم كوبرى ألما .. هوارد دى لوز .. كان من المحتمل أن يكون هذا الاسم اسمى .. نعم إن هذا الاسم يوقظ فى نفسى شيئا ما .. شيئا يتهرب كانعكاس القمر على شىء ما .. لو أننى كنت هذا الهوارد دى لوز ، فلابد أننى أتيت بشىء غريب فى حياتى ، مادمت بين الكثير من المهن الشريفة والمثيرة اخترت مهنة أمين سر جون جيلبرت

---

(١) ممثل أمريكى فى الثلاثينيات والأربعينيات.. عمل أمام جريتا جاربو فى (آنا كارنينا) .

وقبيل متحف الفن الحديث بالذات انعطفنا إلى شارع صغير وقال
– إنني أقيم هنا
كان نور المصعد غير مضاء ، وانطفأ نور السلم في نفس اللحظة التي صعد فيها بنا . وسمعنا . في الظلام ، ضحكات وصوت موسيقى .
توقف المصعد ، وأحسست ببلانت بجوارى يحاول أن يجد قبضة الباب . وفتحه أخيرا . واصطدمت به أثناء خروجي من المصعد لأن الظلام كان حالكا ، وكانت الضحكات والموسيقى صادرة من الطابق الذى نحن به . أدار مفتاحا في القفل .
ترك الباب مفتوحا خلفنا . كنا نقف وسط بهو به نور خافت منبعث من مصباح يتدلى من السقف . ووقف مكانه مذهولا . تساءلت إن لم يكن من الأنسب أن أستأذنه في الانصراف ، كانت الموسيقى عالية تصم الآذان ، وظهرت من المسكن امرأة شابة شقراء ، ترتدى قميص حمام أحمر . نظرت إلينا الواحد بعد الآخر بعينين مشدوهتين . وارتخى جانبا القميص بصورة مذهلة وظهر من تحتهما ثدياها . وقال بلانت يخاطبنى
– زوجتى .
أومأت إلى ايماءة خفيفة من رأسها ، وأعادت بيديها جانبى القميص .
– لم أكن أعرف أنك ستعود مبكرا هكذا!
وبقينا نحن الثلاثة لا نتحرك تحت النور الذى يصبغ وجهها بصبغة باهتة .. وقال يرد عليها
– كان في مقدورك أن تنبهيني
– لم أكن أعرف .
كانت كطفلة ضبطت في حالة تلبس بالكذب .. وخفضت رأسها وكانت الموسيقى الصاخبة قد سكتت، وتلتها أغنية على السكسوفون كانت من

الجمال بحيث لطفت الجو .

وسألها بلانت هل أنتم كثيرون ؟

– كلا .. كلا .. بعض الأصدقاء .

أطلت رأسي من الباب الموارب .. شقراء ذات شعر قصير جدا ، وأحمر فاتح على الشفتين يكاد يكون ورديا .. ثم رأس آخر لرجل أسمر ببشرة كامدة ، بدتا تحت نور المصباح كقناعين، وكان الرجل الأسمر يبتسم .

– يجب أن أعود إلى أصدقائي . أرجع بعد ساعتين أو ثلاث .

قال بلانت حسنا جدا

غادرت البهو مسبوقة بالآخرين وأغلقت الباب ، وتناهت إلينا أصوات ضحكات ومطاردات ثم الموسيقى الصاخبة من جديد

وقال بلانت تعال .

وخرجنا إلى السلم ، وأضاء بلانت النور ، وجلس فوق إحدى الدرجات ، وأشار إليَّ أن أجلس بجواره . وقال

– إن زوجتي أصغر مني بكثير .. بفارق ثلاثين سنة . لا يجب أن يتزوج الرجل بامرأة تصغره بكثير .. أبدا

وألقى يدا فوق كتفي وقال هذا أمر لا ينجح أبدا ، وليس هناك ما يدل على أنه نجح قط . تذكر هذا يا صاحبي

وانطفأ النور . ويبدو أن بلانت لم تكن به أية رغبة في إضاءته ، ولا أنا أيضا على كل حال .

– لو أن جاي رأتني ..

وانفجر ضاحكا لمجرد هذه الفكرة .. ضحكة غريبة في الظلام.

– ما كانت لتعرفني ، فقد ازداد وزني .. ثلاثين كيلاً على الأقل منذ ذلك الوقت .

ضحكة أخرى . ولكنها تختلف هذه المرة عن سابقتها .. كانت أكثر عصبية وتكلفا

– ولماذا تشعر بالخيبة ؟

– كانت تعتقد أننى سأغدو عازفا مشهورا

صيحات نساء تصدر فجأة من مسكن بلانت .. وقلت

– ما الذى يحدث ؟

– لا شىء .. إنهم يلهون .

ارتفع صوت الرجل صارخا افتحى .. افتحى يا دانى .. وضحكات ، وباب يصطفق .

وهمس بلانت دانى هى زوجتى

ونهض وأضاء السلم وقال هلم بنا إلى الهواء النقى .

اجتزنا ساحة متحف الفن الحديث ، وجلسنا على إحدى الدرجات . ورأيت رتلا من السيارات تنطلق تحتنا ، بطول شارع نيويورك ، وكانت الدليل الوحيد على أنه كانت لاتزال هناك حياة . كل شىء حولنا خاو وجامد.. حتى برج إيفل الذى يبعث الأمان عادة بدا أشبه بكتلة من الحديد الخردة المحروق .

وقال بلانت

– إن المرء يتنفس هنا

والواقع أن نسمة دافئة هبت على الساحة وعلى التماثيل التى بدت كبقع فى الظلام ، وعلى الأعمدة الكبيرة التى فى آخر الساحة .

قلت لبلانت أريد أن أريك بعض الصور

وأخرجت من جيبى ظرفا فتحته وأخرجت منه صورتين صورة جاى أورلو مع العجوز جيورجيادزيه والرجل الذى كنت أعتقد أنه أنا، والأخرى التى التقطت لها وهى طفلة . وناولته الصورة الأولى فتمتم

– ولكننى لا أرى شيئا هنا

وأشعل قداحته . واضطر أن «يحكها» أكثر من مرة لأن الريح كانت تطفئ شعلتها . وغطى الشعلة أخيرا براحة يده ، وقرب القداحة من الصور. وقلت له:

– في الصورة رجل .. في آخر اليسار

– نعم .

– هل تعرفه ؟

– كلا .

كان منحنيا فوق الصورة ، ويده فوق جبينه ليحمى نار القداحة

– ألا ترى أنه يشبهنى ؟

– لا أدرى .

وفحص الصورة بضع لحظات ثم أعادها إلىَّ وهو يقول فى أسى

– كانت جاي هكذا عندما عرفتها

– إليك صورة أخرى لها وهى طفلة .

وأعطيته الصورة الأخرى . وراح يفحصها على ضوء شعلة القداحة، واضعا يده على حافة جبينه كالساعاتى الذى يقوم بعمله فى دقة فائقة وقال:

– كانت طفلة جميلة .. هل معك صور أخرى لها ؟

– كلا ، لسوء الحظ .. وأنت ؟

– كانت معى صورة لزفافنا ولكنها ضاعت فى أمريكا ، بل إننى أتساءل إذا كنت قد احتفظت حقا بقصيصة الجريدة التى تتحدث عن انتحارها

لهجته الأمريكية التى كانت تكاد لا تلحظ فى البداية ظهرت أكثر حدة . وأكثر وضوحا .. ولعل التعب هو السبب .

– أيجب أن تنتظر كثيرا هكذا ؟

– أكثر فأكثر أحيانا .. ومع ذلك فقد بدا كل شىء جميلا .. كانت زوجتى ظريفة جدا

وأشعل سيجارة بصعوبة بسبب الريح وقال

– سوف تدهش لو أنها رأتنى هكذا

واقترب منى وألقى يدا فوق كتفى وقال

– ألا ترى يا صاحبى أنها كانت على حق إذ اختفت فى الوقت المناسب.

نظرت إليـه . كان كل شىء مستديرا عنده .. وجهه وعيناه الزرقاوان، وحتى شاربه الصغير كان يبدو كنصف دائرة ، وفمه أيضا ويداه . كان يذكرنى بتلك البالونات التى يمسكها الأطفال فى آخر خيط ثم يطلقونها فى بعض الأحيان، لكى يروا إلى أى مدى ترتفع فى السماء .. حتى اسم بلانت كان منتفخا كإحدى تلك البالونات .

– إننى آسف يا صاحبى .. لم أستطع أن أزودك بالكثير عن جاى ..

أحسست به مثقلا بالتعب والهم ، ولكننى رحت أراقبه عن كثب لأننى خشيت أن يطير فوق الساحة مع أقل نسمة من الريح ويتركنى وحدى مع أسئلتى .

يمتد الشارع بميدان السباق بأوتيى ، من ناحية ممر للخيل ، ومن الناحية الأخرى بيوت مبنية كلها على طراز واحد ، يفصلها بعضها عن بعض حدائق صغيرة . مررت أمام هذه البيوت الفخمة ووقفت أمام البيت الذى انتحرت فيه جاى أورلو بشارع الماريشال لويوتى . فى أى طابق ؟ لا ريب أن البواب قد تغير منذ ذلك الوقت . ألا يزال يوجد بالبيت ساكن يكون قد التقى بجاى أورلو ، فى السلم أو استقل المصعد معها ؟ أو يكون قد رآنى أجىء مرارا إلى البيت فيعرفنى

لا ريب أننى فى بعض الليالى ارتقيت سلم البيت رقم ٢٥ بشارع لويوتى وقلبى يدق .. كانت تنتظرنى . وكانت نوافذها تطل على ميدان السباق .. ومما لاشك فيه أن من الغريب أن نرى السباق من فوق، وأن نرى الجياد والجوكية صغارا جدا، يتقدمون كالتماثيل الصغيرة التى تتتابع من نقطة إلى أخرى أمام منصة الرماية حيث يكسب المرء جائزة كبيرة إذا أصاب كل الأهداف .

بأية لغة كنا نتحدث فيما بيننا ؟ باللغة الإنجليزية ؟ وهل التقطت الصورة مع جيورجيادزيه في هذه الغرفة ؟ كيف كانت مفروشاتها ؟ وماذا كان يمكن أن يقول المدعو هوارد دى لوز عنى أنا ؟ سليل أسرة نبيلة وأمين سرجون جيلبرت وعن راقصة سابقة ولدت فى موسكو وعرفت فى بالم آيلاند لوكى لوتشيانو ؟

أناس غريبو الأطوار لا يتركون خلفهم ما يدل عليهم غير بخار لا يلبث أن يتبخر ويزول . كنا نتكلم ، أنا وهوت ، أحيانا عن أولئك الناس الذين تتلاشى آثارهم ، ثم يظهرون فى يوم جميل من العدم ويعودون بعد أن يتألقوا ببعض البريق . ملكات جمال .. عشاق .. فراشات .. الغالبية منهم ، حتى وهم على قيد الحياة لا قوام لهم إلا كدخان لن يكثف أبدا . وقد ضرب لى هوت مثلا عن ذلك عن رجل يدعوه برجل الشواطئ . قضى ذلك الرجل أربعين سنة من حياته على الشواطئ أو فى أحواض السباحة، يتبادل

الأحـاديث مع المصطافين والعـاطلين من الأثرياء، وفى الزوايا وفى خلفـيـة آلاف الصـور التى التـقطت فى الإجـازات يظهـر ذلك الرجل وهو فى ثوب الاستحمام، بين جماعات مرحة . ولكن ما من أحد يستطيع أن يذكر اسمه ، أو أن يقـول لماذا يوجـد مـعـهم ، ولن يلحظ أحـد ذات يوم أنه اخـتـفى من الصور . ولم أجرؤ أن أقول ذلك لهوت ، ولكننى ظننت أن رجل الشواطئ هو أنا . ثم إننى ما كنت لأثير دهشته لو أننى قلت له ذلك . وكان هوت يقـول دائما إننا جميعا «رجال شواطئ» ، وأن الرمال «وإننى أنكر كلماته بالذات» لا تحتفظ ببصمات أقدامنا أكثر من ثوان معدودة .

أحد البيوت يقع فى ميدان يبدو مهجورا . غابة كبيرة من الأشجار والأدغال، وأرض خضراء لم تمتد يد التهذيب إلى عشبها منذ وقت طويل، وطفل يلهـو وحـده ، فى هدوء ، أمـام تلة من الرمل فى أصـيل هذا اليـوم المشمس . جلست على مقربة من الأرض الخضراء ورفعت رأسى نحو البيت وأنا أتساءل إذا كانت نوافذ جاى أورلو تطل على هذه الناحية

– ٩ –

الوقت ليل، والمصباح الوردى يعكس على جلد مكتب هوت هالة من النور الفاقع، وأنا جالس خلف المكتب أبحث فى القرائن القديمة وفى غيرها أكثر جدة، وأسجل اكتشافاتى أولا بأول .

هوارد دى لوز «جـان سـيـمـتى» ح . ص. ح ومـدام مـابل دوناهيـو . بفالبروز بالأورن ، شارع راينوار رقم ٢١ تليفون ٢٨ – ١٥ بأوتيى .

ن . ر. ع و ن . ى و ص . م .

والدليل الاجتماعى المحتوى على هذه المعلومة يرجع تاريخه إلى ثلاثين سنة ، فهل يتعلق الأمر بأبى .

نفس الاسم فى دلائل السنوات التـاليـة . وأبحث عن مـعنى الرمـوز والاختصارات فأجد ما يلى

ح . ص . ح حائز على وسام صليب الحرب .

ن . ر . ع نادى رايات العيد .

ن . ى نادى اليخت بالساحل اللازوردى .

ص . م . ش صاحب مركب شراعى .

ولكن بعد عشر سنوات تختفى المعلومة التالية .

٢٣ شارع راينوار تليفون ٢٨ - ١٥ بأوتيى

كما تختفى ن . ى و ص . م . ش .

وفى السنة التالية لا يبقى غير هوارد دى لوز وزوجته مابل دوناهيو ، بفالبروز بالأورن

ثم لا شىء بعد ذلك .

وبينما كنت أراجع تقاويم السنوات العشر الأخيرة، كان اسم هوارد دى لوز ٣ ، ميدان هنرى باتييه بالحى السادس عشر

ولم أجد فى الدلائل الاجتماعية فى السنوات العشر الأخيرة أى إشارة له.

- ١٠ -

- مسيو هوارد ينتظرك.

لم يكن هناك شك فى أن التى خاطبتنى هى صاحبة ذلك المطعم الكائن بشارع باسانو. سمراء فاتحة العينين، وأشارت إلىّ أن أتبعها، وتوقفت أمام مائدة يجلس إليها رجل وحيد، نهض واقفا وهو يقول:

- كلود هوارد.

وأشار إلى مقعد أمامه، وجلسنا.

- إننى تأخرت عليك، وألتمس المعذرة.

- لا أهمية على الإطلاق.

وتأملنى فى فضولى، هل عرفنى؟ وقال:

- أثارت مكالمتك التليفونية دهشتى كثيرا.

حاولت أن أبتسم، وتابع هو حديثه فقال:

- واهتمامك بأسرة دى لوز على الخصوص، وأنا آخر أفرادها.

ونطق بالعبارة الأخيرة كما لو كان يسخر من نفسه.

- ثم إننى أدعو نفسى هوارد فحسب، فهذا أقل تعقيدا.

وناولنى قائمة الطعام وهو يقول:

- لست ملزما بأن تأكل نفس الأصناف التى أتناولها، فأنا صحفى نواقة، أكتب عن أنواع الطعام، ولهذا يجب أن أتذوق إختصاصات المطاعم من لحوم وأسماك مختلفة.

وتنهد، كان يبدو كمن وهن عزمه وثبطت همته. وعاد يقول:

- لم أعد أستطيع الاحتمال. إننى مضطر أن آكل مهما يحدث لى فى حياتى:

وجيء له بفطيرة من الرقاق المحشو، وطلبت أنا طبقا من السلطة وفاكهة، فقال:

- أنت محظوظ، فأنا ، يجب أن آكل، لكى أكتب عمودى اليومى .. إننى عائد من مسابقة مطعم الكروش الذهبى .. كنت واحدا من أعضاء لجنة التحكيم، وكان لابد لنا من أكل مائة وسبعين كرشا فى يوم ونصف.

لم أستطع أن أخمن عمره. كان يصفف شعره الفاحم السواد إلى الخلف، وكانت عيناه بلون الكستناء، وفى قسمات وجهه سمة من سمات الزنوج، رغم شحوب بشرته المفرط. كنا نجلس وحدنا فى آخر القبو المعد كمطعم: خشب أزرق سماوى ومفارش من الساتان وأكواب من الكريستال تعيد إلى الذهن الرخص الذى اشتهر به القرن الثامن عشر.

- إننى فكرت فيما قلته لى فى التليفون. هذا الهوارد دى لوز الذى تهتم به لايمكن إلا أن يكون ابن عمى فريدى.

- هل تظن ذلك حقا؟

- إننى واثق من ذلك وإن كنت لم أعرفه تقريبا.

- فريدى هوارد دى لوز؟

- نعم. كنا نلعب أحيانا معا ونحن صغيران.

- أمعك صورة له؟

- كلا.

وقضم قطعة من الفطيرة وهو يغالب الغثيان.

– لم يكن ابن عم من الدرجة الأولى وإنما من الدرجة الثانية أو الثالثة. كان فيه القليل من آل هوارد، أعتقد أنه لم يكن هناك غيرنا أنا وأبى وفريدى وجده. نحن أسرة فرنسية من مواليد جزيرة سان موريس، كما لعلك تعلم.

وأقصى طبقه فى إعياء.

– تزوج جد فريدى بأمريكية ثرية.

– مابل دوناهيو.

– أجل. وكانا يقيمان فى بيت جميل بالأورن.

– فى فالبروز.

– ولكنك دليل حقيقى أيها السيد.

ورمانى بنظرة كلها دهشة واستطرد: وأعتقد أنهم فقدوا كل شيء فيما بعد. وارتحل فريدى إلى أمريكا. ولا أستطيع أن أزودك بتفاصيل أكثر دقة. ولم أعرف كل هذه الأسماء، بل إننى أتساءل إذا كان فريدى لايزال على قيد الحياة.

– وكيف نتأكد من ذلك؟

– لو أن أبى كان موجودا .. كان هو الذى يأتينى بأنباء الأسرة ولكن للأسف..

أخرجت من جيبى صورة جاى أورلو ومعها جيورجيادزيه، وأشرت إلى الرجل الأسمر الذى يشبهنى وسألته:

– هل تعرف هذا الرجل؟

– كلا.

– ألا ترى أنه يشبهنى؟

انحنى فوق الصورة وقال فى غير اقتناع: ربما.

– والمرأة الشقراء؟.. هل تعرفها؟

– كلا.

– ومع ذلك فقد كانت صديقة لابن عمك فريدى.

وبدا كأنه تذكر شيئا فجأة وقال:

– انتظر .. إننى أتذكر. لقد رحل فريدى إلى أمريكا، وهناك يبدو أنه أصبح أمين سر الممثل جون جيلبرت.

أمين سر الممثل جون جيلبرت!.. كانت هذه هى المرة الثانية التى أسمع فيها هذه المعلومة، ولكنها لم تفدنى كثيرا.

– وأعرف ذلك لأنه أرسل إلىّ بطاقة بريدية من أمريكا فى ذلك الوقت.

– هل احتفظت بها؟

– كلا. ولكننى مازلت أذكر مضمونها عن ظهر قلب.

«كل شىء على مايرام، أمريكا بلد جميل، وقد وجدت عملا. أنا أمين سر جون جيلبرت. تحياتى لك ولأبيك.

«فريدى»

وقد أدهشنى ذلك.

– ألم تره بعد أن عاد إلى فرنسا؟؟

– كلا . بل إننى لم أعرف أنه عاد إلى فرنسا.

– وإذا رأيته أمامك الآن فهل تعرفه؟

– ربما لا

لم أجد من نفسى القوة لكى أقول لك إننى أنا فريدى هوارد دى لوز، فلم أكن أملك أى دليل على ذلك بعد، ولكنى احتفظت بأمل كبير.

– إن فريدى الذى عرفته كان فى العاشرة من عمره، فقد اصطحبنى أبى إلى فالبروز لكى ألهو معه.

وقف الجرسون أمام مائدتنا فى انتظار إدلاء كلود هوارد بما يريد، ولكن هذا الأخير لم ينتبه لوجوده، ووقف الرجل مشدودا كحارس يقوم بنوبته.

– وكل ما أستطيع قوله لك أيها السيد هو أننى أحس أن فريدى مات.

– لا يجب أن تقول هذا.

– جميل منك أن تبدى هذا الاهتمام بأسرتنا التعسة التى لم توفق، وأظن أننى الوحيد الباقى على قيد الحياة، أو رأيت مايجب أن أفعل لكى أكسب

لقمتى.

وضرب بيده على المائدة، فى حين أحضر أحد الجرسونات طبق السمك الذى اشتهر به المطعم، واقتربت صاحبة المطعم وقالت وعلى شفتيها ابتسامة ساحرة:

– مسيو هوارد .. لقد تفوق المطعم هذه السنة.

ولكنه لم يسمعها، وتحول إلىّ وقال:

– والواقع أنه ماكان يجب أن نغادر جزيرة موريس أبدا.

– ١١ –

محطة صغيرة وقديمة صفراء وسنجابية، وفى كل جانب منها حواجز من الأسمنت المشغول، وخلف تلك الحواجز، الرصيف الذى هبطت عليه من القاطرة، وميدان المحطة مقفر وليس هناك غير طفل يلهو بقبقاب التزحلق فى ساحة المحطة، وقلت لنفسى:

– أنا أيضا لهوت فى هذه الساحة منذ وقت طويل. هذا المكان الهادئ يذكرنى بشىء حقا. كان جدى هوارد دى لوز يأتى لكى يستقبلنى فى المحطة، أو ربما كان الأمر عكس ذلك، وفى أمسيات الصيف كنت أمضى إلى المحطة، وانتظره على رصيفها، أنا وجدتى مابل دوناهيو.

وعلى مسافة ليست ببعيدة عن المحطة طريق عريض، لأوتوستراد لاتمر به غير سيارات قليلة. مشيت بجوار حديقة عامة حيث توجد حواجز من نفس الأسمنت الذى رأيته فى ميدان المحطة.

وعلى الناحية الأخرى من الطريق توجد بضعة محلات تحت سقيفة كبيرة وسينما ثم حانة تخفيها عن العيون بعض الأغصان. فى آخر الشارع الذى يمتد فى انحدار خفيف، دلفت إليه دون تردد. كنت قد درست خريطة فالبروز. ففى آخر ذلك الشارع الذى تحده الأشجار يوجد سور، وباب عليه لافتة من الخشب النخر استطعت أن أقرأ عليها مخمنا نصف الحروف «إدارة الأملاك» وخلف الباب أرض خضراء مهجورة، فى آخرها بناء كبير مبنى بالطوب والحجارة على نمط لويس الثالث عشر يتوسطه بيت صغير

يعلوه بطابق واحد ويشكل نتوءا، ويكمل الواجهة من كل ناحية بيت جانبى تعلوه قبة، والأبواب والنوافذ كلها مغلقة.

تملكنى إحساس بالأسى. لعلنى كنت واقفا أمام القصر الذى قضيت فيه طفولتى. دفعت الباب وفتحته دون أية صعوبة. كم انقضى من الوقت قبل أن أعبر عتبة هذا الباب ثانية. ورأيت على اليمين مبنى من الطوب لم يكن هناك شك فى أنه الأسطبل.

يرتفع العشب حتى نصف ساقى، حاولت أن أجتاز الأرض الخضراء لكى أمضى إلى القصر بأسرع مايمكن أثار هذا البناء الذى يطبق عليه الصمت دهشتى، وخشيت ألا أجد خلف الواجهة غير أعشاب مرتفعة وأجزاء من جدران منهارة.

سمعت شخصا ينادينى فاستدرت، رأيت رجلا أمام الأسطبل يهز ذراعه، أسرع نحوى، فوقفت. كان رجلا معتدل القامة ضخم الجسم، يرتدى حلة من القطيفة.

– ماذا تريد؟

توقف على بعد خطوات منى. كان أسمر اللون وله شارب.

– أريد بعض المعلومات عن مسيو هوارد دى لوز.

تقدمت نحوه، لعله سوف يعرفنى فى كل مرة ينتابنى هذا الأمل، وفى كل مرة يخيب ظنى.

– أى مسيو هوارد دى لوز؟

– فريدى.

نطقت بالاسم متهدجاً كما لو أننى أنطق باسمى بالذات بعد سنين طويلة من النسيان.

اتسعت عيناه وهتف فريدى!

حسبت، حقا. فى تلك اللحظة أنه ينادينى باسمى.

– فريدى .. لكنه لم يعد هنا.

كلا، إنه لم يعرفنى .. ما من أحد يعرفنى.

– ماذا تريد بالضبط؟

– أريد أن أعرف ماذا حدث لفريدى هوارد دى لوز.

تفرس في وجهي في ارتياب، ثم دس يده في جيب بنطلونه، خشيت أن يخرج سلاحا لكي يهددني به، ولكنه أخرج منديلا جفف به جبينه.

– من أنت؟

– عرفت فريدى في أمريكا منذ وقت طويل.

أشرق وجهه فجأة عند سماعه هذه الأكذوبة وقال:

في أمريكا؟ .. هل عرفت فريدى في أمريكا؟

بدا أن كلمة أمريكا جعلته يحلم. وكان قمينا أن يعانقني لفرط امتنانه لي لأنني عرفت فريدى في أمريكا

– في أمريكا؟.. إذن فقد عرفته عندما كان ..

– أمين سر جون جيلبرت.

تلاشى كل شك من وجهه. أمسكني من معصمي وهو يقول:

– تعال من هنا.

جذبني نحو اليسار، بمحاذاة السور، حيث العشب أقصر، وحيث يبدو خط طريق قديم، قال لي في صوت خفيض:

– ليس لدى أنباء عن فريدى منذ وقت طويل.

كانت حلته القطيفة مستهلكة، وبها رقع عند المرفقين وعند الركبتين.

– هل أنت أمريكي؟– نعم.

– أرسل إليَّ فريدى بطاقات كثيرة من أمريكا.

– هل احتفظت بها؟

– طبعا.

– سرنا نحو القصر. سألني: ألم تأت هنا أبدا؟

– أبدا.

– لكن كيف عرفت العنوان؟

– من ابن عم لفريدى . كلود هوارد دى لوز.

– لا أعرفه.

– وصلنا أمام أحد البيتين المقببين اللذين رأيتهما في كل ناحية من ناحيتي واجهة المبنى. درنا به، أشار إلى باب صغير وقال:

– هذا هو الباب الوحيد الذي يمكن الدخول منه.

أدار مفتاحا في القفل. ودخلنا، تقدمني خلال غرفة معتمة وخاوية ثم سرنا في ممر طويل أفضى بنا إلى غرفة أخرى بها ألواح من الزجاج الملون تجعلها تبدو ككنيسة صغيرة أو حديقة شتوية، وقال لي:

– كانت هذه غرفة الطعام الصيفية.

ولا قطعة أثاث واحدة فيما عدا أريكة من القطيفة الحمراء البالية، جلسنا فوقها، وأخرج من جيبه غليونا وأشعله بهدوء.

وكانت ألواح الزجاج تترك نور النهار يدخل وتعطيه سمة زرقاء باهتة.

رفعت رأسي، ورأيت أن السقف كان هو الآخر أزرق باهتا، بضع بقع فاتحة بعض الشيء .. بعض الشيء .. كانت سحبا، تابع نظرتي وقال:

– فريدي هو الذي رسم السقف والبحر.

كان جدار الغرفة الوحيد مطليا باللون الأخضر، ورأيت فيه نخلة تكاد تمحي، حاولت أن أتصور هذه الغرفة عندما كنا نتناول فيها الطعام في الماضي، السقف الذي رسمت فيه أسماء، والجدار الأخضر الذي أردت أن أضيف إليه بهذه النخلة لمسة استوائية، ونور النهار «المزرق» الذي تعكسه الألواح الزجاجية على وجوهنا، ولكن تلك الوجوه، وجوه من كانت؟

قال لي:

– هذه هي الغرفة الوحيدة التي مازلنا نستطيع الانتقال إليها فهناك أختام على جميع الأبواب.

– لماذا؟

–القصر محجوز عليه.

جمدت هذه الكلمات الدم في عروقي:

– حجزوا على كل شيء في القصر، وتركوني أنا .. ولكن إلى متى..؟

وأخذ نفسا من غليونه وهز رأسه.

ومن وقت لآخر يأتى أحد موظفى إدارة الأملاك للتفتيش، ويبدو أنهم لم يصلوا إلى قرار بعد.

- من؟

- موظفو إدارة الأملاك.

لم أفهم مايقصده جيدا، ولكننى تذكرت اللافتة الخشبية لإدارة الأملاك المعلقة على الباب الخارجى للقصر.

- هل أنت هنا منذ وقت طويل؟

- أوه، نعم. جئت عقب موت مسيو هوارد دي لوز، جد فريدى. كنت أعنى بالحديقة وأقوم بوظيفة سائق السيدة .. جدة فريدى.

- وأقارب فريدى؟

- أظن أنهم ماتوا وهو صبى، وقد رباه جده.

إذن فجدى هو الذى ربانى، وبعد موت جدى عشنا وحدنا هنا، أنا وجدتى مابل دوناهيو وهذا الرجل.

سألته: ما اسمك؟

- روبير.

- كيف كان فريدى يدعوك؟

- كانت جدته تدعونى بوب .. كانت أمريكية، وراح فريدي يدعونى بهذا الاسم هو الآخر.

اسم بوب لم يذكرنى بأى شىء. ولكنه هو الآخر، على كل حال، لم يعرفنى.

- ثم ماتت الجدة، ولم تكن الحالة المالية كما يرام أبدا، فإن جد فريدى بدد ثروة زوجته، وكانت ثروة أمريكية جسيمة.

وراح ينفث دخان غليونه فتتصاعد خيوط من الدخان الأزرق إلى السقف.. هذه الغرفة بألواحها الزجاجية ورسومات فريدى، أى رسوماتى

أنا، في السقف وعلى الجدار كانت دون شك ملاذى ومأواى.

ولكنهم جاءوا وحجزوا على كل شيء.

- ثم اختفى فريدى دون سابق إنذار، ولا أدرى ماحدث، ومن جديد هذه الكلمة «حجزوا» كباب يصفقونه أمامك فى غلظة، فى نفس اللحظة التى تهم فيها باجتيازه.

- ومنذ ذلك الوقت وأنا أنتظر. أتساءل ماذا ينوون أن يفعلوا بى .. لا يمكنهم ، على كل حال، أن يلقوا بى فى الشارع.

- وأين تقيم؟

- في الإسطبل القديم، فقد أعده جد فريدى للسكنى.

وراح ينظر إلىّ متفحصا، والغليون مشدود بين أسنانه.

- وأنت؟ .. قل لى .. كيف عرفت فريدى فى أمريكا.

- أوه، إنها قصة طويلة.

- ألا تريد أن تمشى قليلا؟. سأريك البستان من هذه الناحية.

- بكل سرور.

وفتح باب نافذة، وهبطنا بضع درجات حجرية، ورأيت أمامى أرضاً خضراء كتلك التى اجتزتها لكى أبلغ القصر، ولكن العشب فيها كان أقصر. ودهشت جدا لأن خلفية القصر كانت لاتتفق أبدا مع واجهته، فقد كانت مبنية بالطوب السنجابى، والسطح نفسه كان مختلفا. كانت به بعض القباب والجمالونات، بحيث إن القصر الذى يبدو لأول وهلة كأنه من تلك القصور التى بنيت فى عهد لويس الثالث عشر بدا من ظهره أنه أشبه ببيوت الاصطياف التى انتشرت فى القرن التاسع عشر والتى لايزال يوجد القليل منها فى بيارتيز. قال لى:

- أحاول بكل هذه الناحية من البستان، لكنه عمل شاق بالنسبة لرجل وحيد.

وسلكنا طرقة يغطيها الحصى، بمحاذاة الأرض الخضراء، وعلى اليسار أشجار قصيرة لاتعلو عن قامة الرجال مشذبة بعناية فائقة أشار إليها قائلا:

– المتاهة، زرعها جد فريدي، وأبذل جهدي للعناية بها في حدود استطاعتي، ولابد أن يبقى كل شيء كالأيام الماضية.

دخلنا المتاهة من أحد مداخلها الجانبية، انحنينا بسبب قبة الأيكة كانت هناك ممرات كثيرة متشابكة، ومفارق طرق وميادين ومنحنيات دائرية وأخرى مستقيمة الزوايا، وعطفات مسدودة، وبقعة جرداء بها مقعد مستطيل من الخشب الأخضر، لاشك أنني لهوت كثيرا في هذه المتاهة، ولعبنا الاستغماية، أنا وجدي وغيري من الأطفال من نفس سني، وسط هذا التيه العجيب الذي يعبق بشذا التمر حناء والصنوبر. لم يسعني إلا أن أقول:

– هذا عجيب. هذه المتاهة تذكرني بشيء.

لكن بدا عليه أنه لم يسمعني.

وفي آخر المرجة تعريشة قديمة معلق بها أرجوحتان.

– هل تسمح؟

وجلس على إحدى الأرجوحتين، وأشعل غليونه من جديد، في حين جلست أنا على الأرجوحة الأخرى، كانت الشمس تميل في الأفق وتضفي على المرجة وأشجار المتاهة نورا حقيقيا برتقاليا، وحجارة القصر الرمادية كانت مبقعة بنفس ذلك اللون.

واخترت هذه اللحظة وأعطيته صورتي أنا وجاي أورلو وجيورجيادزيه.

– هل تعرف هؤلاء الأشخاص؟

وتأمل الصورة مليا وهو محتفظ بالغليون بين أسنانه ثم قال:

– أعرف هذه .. عرفتها جيدا.

ووضع سبابته فوق وجه جاي أورلو قائلا: الروسية!

ونطق بتلك الكلمة بلهجة حالمة ضاحكة.

– تسألني إذا كنت عرفتها .. إنها الروسية طبعا.

وانفجر في ضحكة قصيرة ثم تابع كلامه قائلا:

– أتى فريدي معها كثيرا في السنوات الأخيرة .. فتاة محترمة شقراء .. وأستطيع أن أقول لك إنها كانت تشرب الخمر بدون ماء ... هل تعرفها؟

قلت: نعم، رأيتها مع فريدى فى أمريكا.

إذن فهو قد تعرف بالروسية فى أمريكا.

– نعم.

– هى إذن التى يمكنها أن تقول لك أين فريدى فى هذه اللحظة .. يجب أن تسألها.

– وهذا الرجل، بجوار الروسية؟

انحنى قليلا فوق الصورة وتفرس فيها، وقفز قلبى بين ضلوعى:

– نعم، إننى عرفته هو الآخر .. انتظر .. نعم، كان صديقا لفريدى كان يأتى هنا برفقة فريدى والروسية وفتاة أخرى .. أظن أنه من أمريكا الجنوبية أو شىء من هذا القبيل.

– ألا ترى أنه يشبهنى.

أجاب دون اقتناع. نعم. ولم لا؟

كان هذا واضحا .. فأنا لم أكن فريدى هوارد دى لوز، نظرت إلى المرجة ذات العشب الطويل التى لاتزال حافتها وحدها تتلقى أشعة الشمس الغاربة، لم أتنزه أبدا فى هذه المرجة، متأبطا ذراع جدتى الأمريكية، ولم أمرح أبدا وأنا طفل فى هذه المتاهة.

وهذه التعريشة الصدئة بأرجوحتيها لم تعد فى ذلك المكان من أجلى.

– تقول من أمريكا الجنوبية؟

– نعم . ولكنه كان يتكلم الفرنسية مثلى ومثلك.

– وهل رأيته كثيرا هنا؟

– نعم .. كثيرا.

– كيف عرفت أنه من أمريكا الجنوبية؟

– لأننى ذهبت ذات يوم لكى آتى به بالسيارة من باريس، وكان قد ضرب لى موعدا فى المكان الذى يعمل به .. فى إحدى سفارات أمريكا الجنوبية.

– أى سفارة؟

– أما هذا فإنك تطلب منى الكثير.

كان يجب أن أعتاد على هذا التغيير. لم أعد سليل أسرة يظهر اسمها في الدلائل الاجتماعية القديمة، ولا حتى في التقاويم السنوية وإنما أمريكي، من مواطني أمريكا الجنوبية سيشق عليه جدا الاهتداء إلى جذوره.

– أظن أنه كان صديقا لفريدى من أيام الطفولة.

– هل كان يأتي هنا برفقة امرأة؟

– نعم .مرتين أو ثلاث مرات. كانوا يأتون ، كل الأربعة مع الروسية وفريدى بعد موت الجدة.

ووقف وهو يقول : ألا تريد أن نعود.. إن الجو بدأ يبرد . وكان الليل قد هبط تقريبا. وعدنا إلى غرفة الطعام الصيفية.

– كانت الغرفة المفضلة لفريدى في المساء .كانوا يبقون هنا إلى وقت متأخر، مع الروسية والجنوب أمريكي والفتاة الأخرى.

لم تعد الأريكة غير بقعة رقيقة، وعلى السقف كانت الظلال تتجزأ في تعريشات وأشكال أخرى .

– كانوا قد جاءوا بطاولة بليارنو وضعوها هنا . وكانت الفتاة صديقة الأمريكي هي التي تلعب البليارنو على الخصوص ، وكانت تكسب كل مرة . وأستطيع أن أقول لك ذلك لأنني لعبت معها أشواطا كثيرة .. انظر، مازال البليارنو موجودا.

وجذبني إلى رواق معتم، وأضاء مصباحا كهربيا أخرجه من جيبه ودلفنا إلى بهو مبلط يبدأ منه سلم كبير.

– المدخل العمومي.

الواقع أنني رأيت بجوار السلم بليارنو، أضاءه بمصباحه. كانت لاتزال توجد في منتصفه كرة بيضاء، بدت كما لو أن الشوط توقف ليبدأ من جديد مابين لحظة وأخرى، وإني أنا أو جاي أورلو أو فريدى أو تلك الفرنسية الغامضة التي ترافقني ، ننحني لكي نصوب ..

– ها أنت ترى أن البليارنو مازال موجودا. سلط نور مصباحه على السلم وقال

– لا فائدة من الصعود .فقد وضعوا الأختام في كل مكان . تصورت أن لفريدى غرفة نوم فوق .. غرفة طفل ثم غرفة شاب بها رفوف زاخرة بالكتب، وصور ملصقة على الجدران و..من يدري؟ قد تكون من بينها صورتنا نحن الأربعة ، أو أنا وفريدى متشابكى الأيدى . واتكأ بوب على البليارنو لكي يشعل غليونه .أماأنا فلم أملك إلا أن أتامل ذلك السلم الكبير الذي لا فائدة من ارتقائه لأن الأختام موضوعة في كل مكان

خرجنا من الباب الجانبي الصغير ، وأغلقه بالمفتاح مرتين . وكان الوقت ليلا. قلت له:

– يجب أن أستقل القطارالى باريس .

– تعال معى .

وضغط على ذراعي. ومشيت معه بمحاذاة السور حتى بلغنا الإسطبل القديم ، وفتح بابا زجاجيا، وأشعل مصباحا غازيا وهو يقول:

– لقد قطعوا الكهرباء منذ وقت طويل ، ولكنهم نسوا أن يقطعوا الماء. دلفنا إلى غرفة تتوسطها منضدة من الخشب الداكن، ومقاعد من الخيزران. ولصق الجدران أطباق من الصيني وصحاف من النحاس ، ورأس خنزير برى مصبرة معلقة فوق النافذة.

– لك عندى هدية.

مضى إلى صوان في آخر الغرفة وفتحه، وأخرج منه علبة وضعها فوق المنضدة على غطائها هذه الكلمات«بسكويت ليفيفر– أوتيل–بنانت».

ثم وقف أمامي وقال في صوت يتهدج بالانفعال:

– أنت كنت صديق فريدى ، أليس كذلك؟

– نعم.

– حسنا. إننى أعطيك هذا

وأشار إلى العلبة .

– إنها تضم تذكارات لفريدي.. أشياء صغيرة استطعت إنقاذها عندما

أقبلوا للحجز على محتويات القصر.

كان متأثراً جداً، بل إننى أعتقد أن الدموع كانت فى عينيه.

– كنت أحبه جداً عرفته وهو جد صغير كان شاباً حالماً.

يقول دائما إنه سيشترى زورقاً شراعياً .. ويقول لى «سوف تكون مساعدى يابوب» والله وحده يعلم أين هو الآن هذا إذا كان لايزال على قيد الحياة.

قلت: سوف نجده.

– دللته جدته كثيرا.

وأخذ العلبة وناولنى إياها. فكرت فى ستيوبادى جاجوريف والعلبة الحمراء. كل شئ ينتهى حتما فى علب قديمة للشيكولاته أو للبسكويت أو للسيجار.

– شكرا.

– سأرافقك حتى المحطة. وسلكنا طريقاً غابياً تتخلله الأشجار وكان يلقي بأشعة مصباحه الكهربى أمامنا. وخامرنى إحساس بأننا نتوغل في قلب الغابة.

– إننى أحاول أن أتذكر اسم صديق فريدى.. ذلك الذى عرضت علىّ صورته.. أعنى الأمريكى.

واجتزنا أرضا جرداء كان القمر يكسب عشبها لونا فسفوريا، وبعدها غابة من أشجار الصنوبر كانت فى مجموعها كالمظلة. وكان بوب قد أطفأ مصباحه لأن الرؤية كانت واضحة فيها، كما لو كان الوقت نهارا:

– كان فريدى يمتطى جواده فى هذا المكان هو وصديق آخر له.. جوكى.. ألم يحدثك أبداعن هذا الجوكى؟

– أبدا.

– لا أتذكر اسمه. ومع ذلك فقد كان مشهورا.. كان يعمل جوكيا لجد

فريدى عندما كان الشيخ يملك إسطبلا للسباق.
- هل كان الأمريكى يعرف ذلك الجوكى أيضاً؟
- بكل تأكيد، فقد كانا يأتيان هنا معا. وكان الجوكى يلعب البليارنو مع الآخرين . بل أظن أنه هو الذى عرف فريدى بالروسية. خشيت ألا أتذكر كل هذه النقاط. كان يجب أن أدونها فورا فى دفتر صغير. وارتفع الطريق فى إنحدار خفيف، وجدت صعوبة فى السير بسبب كثافة الأوراق الميتة.
- ألم تتذكر اسم الأمريكى بعد؟
- انتظر.. انتظر.. سوف أتذكره.

ضغطت بيدى على علبة البسكويت. كنت مشتاقا لمعرفة ما فيها فلعلنى أجد فيها بعض الإجابات على أسئلتى : اسمى أو اسم الجوكى مثلا.

كنا قد بلغنا حافة منحدر، وكان يكفى أن أهبط لكى أصل إلى ميدان المحطة. الذى يبدو متفرقا بساحته المتلألئة بأنوار النيون. واجتاز الميدان راكب دراجة، فى بطء ، قبل أن يتوقف أمام المحطة -انتظر ..اسمه.. اسمه بدرو..

بقينا واقفين على حافة المنحدر. وأخرج بوب غليونه من جديد وراح ينظفه بأداة غريبة. وجدت نفسى بأن الاسم الذى أسمونى به يوم مولدى.. الاسم الذى عرفت به أثناء حقبة طويلة من حياتى، والذى نادانى به أصدقائى هو بدرو.

- ١٢ -

لاشيء يذكر فى العلبة: جندى من الرصاص المثلوم، ومعه طبلة. وزهرة مصبرة ملصقة فوق ظرف أبيض وبضع صور، أظهر فى صورتين منهما. ليس هناك شك فى أنهما لنفس الرجل الذى يقف بجوار العجوز جيور جيادزيه.. رجل أسمر طويل القامة.. أنا بفارق واحد هو أنه لى شارب وعلى الصورتين أرانى برفقة رجل آخر.. شاب مثلى، طويل القامة ولكن شعره أفتح بكثير.. فريدى؟.. نعم كتب أحدهم بالقلم الرصاص فى ظهر الصورة

«بدرو وفريدى،لابول».نحن على شاطئ البحربمدينة لابول. وكل منا يرتدى قميص بحر ..صورة قديمة جدا كمايبدو.

نحن أربعة في الصورة الثانية أنا وفريدى وجاى أورلو، وقد عرفتها بكل سهولة، وأمرأة أخرى.كنا نجلس على الأرض ونعتمد بظهورنا على أريكة القطيفة الحمراء فى غرفة طعام صيفية، وعلى يميننا بلياردو صورة ثالثة للمرأة الجالسة معنا فى غرفة الطعام، تبدو هذه المرة أمام البلياردو وفى يدها العصا الخاصة بهذه اللعبة. شعرها فاتح يتهدل إلى مابعد كتفيها.. هى تلك التى كنت أصطحبها إلى قصر فريدى ، وهى نفسها تعتمد على سور الشرفة فى صورة ثالثة

بطاقة بريدية بعنوان مسيو روبير طرف هوارد دى لوز بفالبروز لمنظر ميناء مدينة نيويورك ،عليها الكلمات التالية:

عزيزى بوب، تحياتى من أمريكا، إلى اللقاء قريباً

فريدى.

ومستند غريب آخر نصه كالآتى:

القنصلية العامة لجمهورية الأرجنتين رقم ١٠٦

يشهد القنصل العام لجمهورية الأرجنتين المكلف برعاية المصالح اليونانية فى الأراضى المحتلة بأن وثائق سجلات مدينة سالونيك قد دمرها الحريق خلال الحرب العالمية فى سنة ١٩١٨

باريس فى ١٥ يولية سنة ١٩٤١

القنصل العام لجمهورية الأرجنتين

المكلف برعاية مصالح اليونانيين وتوقيع تحته هذه الكلمات

ر . ل . دى أوليفيرا سيزار

قنصل عام أنا ؟ .. كلهم ، فاسمه ليس بدرو .

الحجز على ممتلكات هوارد دى لوز

بيع بالمزاد العلنى بناء على أوامر إدارة الأملاك بفالبروز ، بالاورن ،

قصر سان لازار
يومى ٧ و٨ إبريل
مفروشات هامة
تحف فنية وقطع موبيليا قديمة وحديثة
لوحات . صينى . سيراميك
سجاد ، مفروشات ، بياضات
بيانو موديل إيرارد
ثلاجة وغيرها
العرض السبت ٦ إبريل من الساعة الثامنة صباحا حتى السادسة ، وصباح يومى البيع من العاشرة حتى الثانية عشرة صباحا

وأفتح الظرف الملصق عليه الزهرة المصبرة وأجد بداخله أربع صور صغيرة من نوع تلك التى يدعونها فوتوماتون ، إحداها لفريدي والثانية لى والثالثة لجاى أورلو والرابعة للمرأة ذات الشعر الفاتح .

ووجدت أيضا جواز سفر لجمهورية الدومينيك على بياض .

وأدرت صورة المرأة ذات الشعر الفاتح صدفة ، وجدت على ظهرها بنفس الخط المنسق الذى كتبت به بطاقة البريد الأمريكية الكلمات التالية

بدرو ت ٢٨ – ١٥ انج

– ١٣ –

فى كم مفكرة يظهر رقم هذا التليفون الذى كان رقمى ؟

هل مازال موجودا ؟

أتراه رقم تليفون مكتب حيث لايمكن الاتصال بى إلا بعد الظهر ؟

أدرت قرص التليفون وطلبت رقم ٢٨ – ١٥ انج . وتتالى الصليل وتتابع ولكن لم يرد أحد . هل لايزال هناك أثر لوجودى فى الشقة الخالية والغرفة غير المسكونة منذ وقت طويل حيث يصلصل جرس التليفون هذا المساء عبثا.

لست بحاجة للاتصال بالاستعلامات . يكفى أن أحرك ساقى وأدير مقعد هوت الجلدى . أمامى رفوف الدلائل والتقاويم والنشرات . أحد هذه الدلائل أصغر من الباقى ومجلد بجلد ثمين مطبوع بلون أخضر فاتح . وهو الدليل الذى يلزمنى ، فهو يحتوى على جميع أرقام التليفونات الموجودة فى باريس منذ ثلاثين عاما مشفوعة بالعناوين الخاصة بها

وأقلب الصفحات وقلبى يدق وأقرأ

٢٨ – ١٥ انج رقم ١٠ شارع كامبا سيريس بالحى الثامن ولكنى لم أجد هذا الرقم فى دليل شوارع السنة الحالية وإنما وجدت الأرقام التالية

رقم ١٠ مكرر بشارع كامباسيريس

رابطة تجار الماس ١٦ – ١٨ مير .

ورشة خياطة فاشيون ٤٩ – ٣١ انج

هيلين بلجريم ٣١ – ٠٥ إيلى

مؤسسة ريبندر ٨٠ – ١٢ مير

دى ريفيج ٥٢ – ٥٠ انج

سيفيك ٣١ – ٧٤ مير

سيفيك ٣٢ – ٧٤ مير .

سيفيك ٣٣ – ٧٤ مير

رجل اسمه الأول بدرو . تليفون ٢٨ - ١٥ انج بشارع كامباسيريس رقم ١٠ مكرر بالحى الثامن .

كان يعمل فى مفوضية إحدى دول أمريكا الجنوبية . الساعة التى تركها هوت فوق المكتب تشير إلى الثالثة صباحا . وتحت فى شارع نبيل لم تعد تمر غير سيارات قليلة ، وأسمع أحيانا صرير فراملها أمام الإشارة الحمراء.

أقلب صفحات الدلائل القديمة التى تضم قائمة السفارات والقنصليات وموظفيها

جمهورية الدومينيك - شارع دى ميسين رقم ٢١ بالحى الثامن تليفون ١٨ - ١٠ كارنو مبعوث فوق العادة ووزير مفوض

الدكتور جوستافو ج . هنريكز سكرتير أول

الدكتور سلفادورا . باراداز سكرتير ثان

«وزوجته بشارع الزاس رقم ٤١ بالحى التاسع»

الدكتور بيانفينيد كاراستون ملحق

الدكتور ر . ديكامبز ٤٥ الحى السادس عشر تليفون ٩١ - ٤٢ ترو

قنصلية فنزويلا

شارع كوبرنيك رقم ١١ بالحى السادس عشر تليفون ٢٩ - ٧٢ باسى

القنصلية بشارع لابومب رقم ١١٥ بالحى السادس عشر تليفون ٨٩ - ١٠ باسى .

الدكتور كارلو إريستومونو كول مبعوث فوق العادة ووزير مفوض .

مسيو جيم بيكون فيبر مستشار

مسيو أنطونيو ماتوريب سكرتير أول

مسيو أنطونيو بريونو ملحق

الكولونيل هـ . لوبيز منديز ملحق عسكرى

مسيو بدرو سولاجا ملحق تجارى

جمهورية جواتيمالا

شارع جوفر رقم ١٢ بالحى السابع تليفون ٥٩ – ٠٩ سيجور مسيو آدم موريسك ريوس مستشار مكلف بالأعمال .

مسيو إسرائيل جونساليزا ريفالو سكرتير

مسيو يدريكو مورجو ملحق جمهورية أكوادور

شارع واجرام رقم ٩١ الحى السابع عشر تليفون ٨٩ – ١٧ أتوال .

مسيو جونساليزز الدومبيك مبعوث فوق العادة ووزير مفوض «وزوجته»

مسيو ألبرتو بويج أروسيمانا سكرتير أول «وزوجته» .

مسيو ألفريدو جانجوتينا سكرتير ثالث «وزوجته» .

مسيو كارلوس جوزمان ملحق «وزوجته» .

مسيو فيكتور زيفالوس مستشار «وزوجته» بشارع يينا بالحى السادس عشر .

جمهورية السلفادور

مسيو ريكيز فيرجا مبعوث فوق العادة .

الرائد ج . هـ ويشو ملحق عسكرى «وابنته» .

مسيو ف . كابورو سكرتير أول .

لويس ...

الحروف تتراقص ... من أنا ؟

ما إن تستدير إلى اليسار حتى يدهشك الصمت والفراغ فى هذا الجزء من شارع كامباسيريس . ولا سيارة واحدة . مررت أمام فندق وبهرت عينى ثريا كانت تتلألأ بكل مافيها من كريستال ، ومع ذلك فقد كانت الشمس فى كبد السماء .

ورقم ١٠ مكرر عبارة عن بيت صغير من أربعة طوابق .. نوافذ عالية فى الطابق الأول ، وشرطى واقف يقوم بالمراقبة على الرصيف المقابل .

كان أحد مصراعى البيت مفتوحا والسلم مضاء ، والبهو طويل بجدرانه الرمادية ، وفى آخره باب بألواح صغيرة من الزجاج وجدت مشقة فى فتحه لأن حصاة كانت تعوقه ، وسلم عار يؤدى إلى الطوابق

توقفت أمام باب الطابق الأول وقد استقر منى العزم أن أسأل سكان كل طابق إذا كان رقم التليفون ٢٨ - ١٥ انج كان يخصه فى وقت من الأوقات جف حلقى لأننى أدركت مدى غرابة محاولتى هذه . على الباب لوحة صغيرة من النحاس قرأت عليها

هيلين فيليجرام .

الجرس ضعيف بحيث لم يكن يسمع إلا لماما . ظللت أضغط عليه فترة طويلة . انفتح الباب أخيرا وأطل منه وجه امرأة ، شعرها قصير أشهب

- سيدتى .. مجرد استعلام بسيط .

نظرت إلىّ . كانت عيناها فاتحتين جدا . لم يكن من المستطاع تحديد سنها . ربما ثلاثين سنة وربما خمسين

- ألم يكن لديك تليفون برقم ٢٨ - ١٥ أنج ؟

قطبت حاجبيها وقالت بلى . لماذا ؟

وفتحت الباب . كانت ترتدى روب دى شامبر رجالياً من الحرير الأسود

- لماذا تسألنى ذلك ؟

- لأننى سبق أن أقمت هنا

خرجت إلى البسطة ، وراحت تتأملنى مليا . واتسعت عيناها وقالت

– ولكن ... هل أنت مسيو ماك إيفوى ؟

أجبتها دون أى تردد ، غير مهتم بالعواقب : نعم .

– ادخل .

بدا عليها الانفعال حقا . كنا نقف ، كل منا أمام الآخر فى بهو خشب أرضيته أصابها التلف ، واستبدلت بعض قطعه بقطع من المشمع

قالت وهى تبتسم أنت لم تتغير كثيرا

– وكذلك أنت .

– أمازلت تذكرنى ؟

قلت إننى أذكرك جيدا

– هذا قول جميل منك .

ونظرت إلىّ طويلا فى رفق ثم قالت تعال .

وتقدمتنى إلى غرفة مرتفعة السقف وواسعة جدا ، نوافذها هى التى لمحتها من الشارع ، وأرضيتها الخشبية هى الأخرى كأرضية البهو ، وبعض أجزائها مفروش بسجاد من الصوف الأبيض ، وتتسلل شمس الخريف من خلال النوافذ وتضىء الغرفة بنور عنبرى .

– أجلس

وأشارت إلى مقعد مستطيل منجد عليه وسائد من القطيفة بجوار الحائط، وجلست هى على يسارى .

– من الغريب أن أراك هكذا فجأة

قلت كنت مارا بالشارع

بدت لى أصغر سنا مما بدت لى عندما فتحت الباب . ليس بها أية غضون، لا عند ثنايا الشفتين ولا عند العينين ولا فى الجبين .

وتعارض وجهها الأملس مع شعرها الأبيض . وقلت

– يخامرنى إحساس بأنك صبغت شعرك .

– أبداً . ابيض شعرى وأنا فى الخامسة والعشرين .. وفضلت أن أحتفظ به هكذا

لم يكن هناك فيما عدا الأريكة ، مفروشات كثيرة منضدة مستطيلة بجوار الباب ، ومانيكان قديم مما يستخدم فى عرض الأزياء بين النافذتين، وجذع تمثال مغطى بقطعة متسخة من قماش أسمر فاتح ، وجودها الغريب فى هذه الغرفة يوحى للمرء أنه فى ورشة خياطة ، زد على ذلك أننى لمحت فى ركن من الغرفة ، فوق منضدة ، ماكينة خياطة .

سألتنى هل تحققت من الشقة ؟

إننى احتفظت ببعض هذه الأشياء .

وأشارت بذراعها إلى المانيكان وأردفت دنيز هى التى خلفت وراءها هذا

دنيز!

قلت الواقع أن الشقة لم تتغير كثيرا

سألتنى فى لهفة ودنيز ؟.. ماذا حدث لها ؟

قلت حسنا .. لم أرها منذ وقت طويل .

– آه . حسنا

وارتسمت على وجهها أمارات خيبة الأمل وهزت رأسها كما لو أنها أدركت أنه لايجب أن نتحدث عن هذه الدنيز ، اعتبارا لى.

وقلت هل كنت تعرفين دنيز منذ وقت طويل .

– نعم ، عرفتها عن طريق ليون .

– ليون ؟

– ليون فان آلن .

قلت متأثرا بلهجة العتاب التى بدت فى صوتها عندما وجدت أننى لم أتذكر ليون فان آلن عندما نطقت باسم ليون فحسب .

– ولكن طبعا .. طبعا .. ماذا حدث له ؟

– أوه . لم أره منذ سنين . هاجر إلى مارا ماريبو بجيانا الهولندية ، وأنشأ مدرسة للرقص هناك .

– للرقص ؟

– نعم . كان قد مارس الرقص قبل أن يهتم بالخياطة . ألم تكن تعرف ذلك ؟

– بلى ، بلى ، ولكنى نسيت .

واضطجعت إلى الخلف ، واعتمدت بظهرها على الحائط ، وعقدت رباط الروب دى شامبر وقالت :

– وأنت ؟ .. ماذا حدث لك ؟

– أوه .. أنا ؟ لا شىء .

– ألم تعد تعمل فى مفوضية الدومينيك ؟

– كلا .

– هل تذكر عندما عرضت أن تزودنى بجواز سفر دومينيكى ؟ قلت إن المرء لابد أن يحتاط لكل شىء فى الحياة ، وأن يكون لديه أكثر من جواز سفر

وأطربتها هذه الذكرى . وضحكت ضحكة قصيرة . وسألتها

– متى جاءتك أخبار عن دنيز لآخر مرة ؟

– إنكما سافرتما إلى ميجيف معا . وأرسلت هى إلىّ بطاقة بريدية من هناك ثم لا شىء .

وحدجتنى بعينين متسائلتين ولكنها لم تجرؤ أن تلقى على سؤالا مباشرا دون شك . من كانت هذه الدنيز ؟

هل لعبت دورا مهما فى حياتى ؟

قلت لها تصورى أن هناك لحظات يخامرنى فيها إحساسى بأننى فى ضباب تام .. وفى مخى فجوات .. أوقات سوداء . ولكننى . وأنا أعبر الشارع سمحت لنفسى أن .. أن أصعد فى محاولة لكى أجد .. أجد

وبحثت عن الكلمة المناسبة عبثا . ولم يكن لهذا أية أهمية على كل حال ، فقد كانت تبتسم . وكانت تلك الابتسامة تدل على أن محاولتي لم تدهشها

– أتقصد أن تقول لكي تجد الوقت الجميل؟

– نعم . هو ذلك .. الوقت الجميل .

وتناولت علبة مذهبة من فوق مائدة منخفضة بجوار الأريكة . وفتحتها كانت مملوءة بالسجائر .. فقلت لها

– كلا . شكرا

– هل أقلعت عن التدخين ؟.. هذه سجائر إنجليزية . أذكر أنك كنت تدخن سجائر إنجليزية كلما اجتمعنا نحن الثلاثة .. أعنى أنا وأنت ودنيز وكنت تأتينى بحقيبة مملوءة بعلب سجائر إنجليزية .

– نعم ، نعم . هذا صحيح .

– كنت تستطيع الحصول على ما تريد منها من مفوضية الدومينيك

مددت يدى نحو العلبة المذهبة ، وأخذت بين سبابتى وإبهامى سيجارة وضعتها بين شفتى فى شىء من التخوف . وأعطتنى قداحتها بعد أن أشعلت سيجارتها . واضطررت أن أحكها أكثر من مرة لكى أحصل على شعلة ، وأخذت نفسا . وما كدت أفعل حتى شعرت بوخزة مؤلمة فى قلبى ، وغلبنى السعال .

وقلت

– إننى فقدت العادة .

ولم أدر كيف أتخلص من السيجارة فتركتها مشتعلة من إصبعى وقلت

– أنت تقيمين الآن فى هذه الشقة إذن ؟

– نعم، عدت للإقامة هنا عندما انقطعت عنى أخبار دنيز . ثم إنها قالت قبل سفرها إننى أستطيع العودة إلى شقتى

– قبل سفرها ؟

– نعم . قبل أن ترحل إلى ميجيف .

وهزت كتفيها كان هذا الأمر يجب أن يكون معلوما لى .
قلت
– يخامرنى إحساس بأننى قضيت وقتا لا بأس به فى هذه الشقة .
– بقيت فيها بضعة شهور مع دنيز .
– وكنت تقيمين هنا قبلنا ؟
نظرت إلىّ فى دهشة وأجابت طبعا ، فهى شقتى ، وكنت قد أعرتها لدنيز، فقد كان علىّ أن أغادر باريس .
– معذرة .. كنت أفكر فى شىء آخر
– كانت هذه الشقة عملية بالنسبة لدنيز .. فهى واسعة تصلح لكى تكون محلا للخياطة .
– خياطة ؟.. وعلت
– إننى أتساءل لماذا تركنا هذه الشقة .
– وأنا أيضا
ومن جديد تلك النظرة المتسائلة . لكن ماذا يسعنى أن أقول لها . كنت أعرف أقل مما تعرف هى . ألقيت أخيرا عقب السيجارة فى المنفضة إذ كاد يحرق إصبعى ، قلت فى شىء من الخجل
– هل تقابلنا قبل أن نأتى هنا ؟
– نعم . مرتين أو ثلاثا .. فى فندقكما
– فى فندقنا ؟
– فندق كاستيل بشارع كامبون . ألا تتذكر الغرفة التى كنت تقيم فيها أنت ودنيز ؟
– نعم .
– تركتما الفندق لأنكما لم تشعرا فيه بالأمان .. أليس كذلك ؟
– نعم .
– كان وقتا غريبا حقا

– أى وقت ؟

لم ترد . وأشعلت سيجارة أخرى .

– أريد أن أريك بعض الصور

وأخرجت من جيبى الداخلى ظرفا لم يعد يفارقنى وضعت فيه كل الصور، وعرضت عليها الصورة التى التقطت لى أنا وهوارد دى لوز وجاى أورلو والمرأة المجهولة فى غرفة الطعام الصيفية

استدارت لكى تنظر إلى الصورة على ضوء الشمس وقالت

– أنت مع دنيز .. لكنى لا أعرف الشخصين الآخرين .

كانت هى دنيز إذن .

– أما كنت تعرفين فريدى هوارد دى لوز ؟

– كلا .

– ولا جاى أورلو ؟

– إن للناس قطعا حيوات مستقلة ، وأصدقاؤهم لايعرفون بعضهم البعض . وهذا يدعو للأسف .

– عندى صورتان أخريان لها

أعطيتها الصورة الصغيرة أنفوتيماتون ، والأخرى التى تستند فيها على الدرابزين ، وألقت نظرة إلى الأخيرة وقالت

– رأيت هذه الصورة من قبل . بل أعتقد أنها أرسلتها إلىّ من ميجيف ، ولكننى لا أذكر أين وضعتها

أخذت الصورة من بين يديها ونظرت إليها مدققا .. ميجيف .. كان هناك خلف دنيز نافذة بمصراع من الخشب . نعم المصراع والدرابزين يمكن أن يكونا لشاليه فى الجبل .

قلت فجأة

– السفر إلى ميجيف كان فكرة غريبة حقا ألم تذكر لك دنيز رأيها فى ذلك ؟

راحت تتأمل الصورة الفوتوماتون ، وانتظرت ردها وقلبي يدق

– نعم . إنها كلمتني . قالت لي إن ميجيف مكان آمن ، وإنكما تستطيعان عبور الحدود بكل أمان .

– نعم، طبعاً

لم أجرؤ على المضي أكثر من ذلك . لماذا أشعر بالخجل والخوف هكذا في اللحظة التي أقترب فيها للتعرض من الموضوع الذي يهمني ولكن هي أيضا ، وقد عرفت ذلك من نظرتها إليّ ، ودت أن أزودها ببعض المعلومات . وبقي كل منا صامتا . وأخيرا قالت

– ولكن ماذا حدث في ميجيف ؟

ألقت عليّ السؤال بطريقة أكثر إلحاحا عن المرة الأولى . أحسست بأن الإحباط يستولى عليّ ، بل أكثر من الإحباط ، اليأس الذي يتملكك عندما تدرك أنك رغم جهدك وميزاتك وكل إرادتك الطيبة ترتطم بعقبة منيعة لا قبل لك بالتغلب عليها

– سوف أشرح لك .. في يوم آخر .

لابد أنه كان هناك شيء من الشرود والضياع في صوتي أو في تعبيرات وجهي لأنها شددت الضغط على ذراعي كأنها تواسيني

قالت

– معذرة لإلقائي هذه الأسئلة المتطفلة .. لكنني كنت صديقة لدنيز

– إنني أفهم

نهضت وقالت انتظر لحظة

غادرت الغرفة . ونظرت إلى دوائر النور التي تعكسها أشعة الشمس عند قدمي ، فوق السجادة الصوف البيضاء ، ثم فوق ألواح الباركيه ، وفوق المائدة المستطيلة الشكل ، والمانيكان القديم الذي كان ملكا لدنيز . أيمكن أن لايتذكر المرء مكانا قضى فيه بعضا من حياته

وعادت وفي يديها كتابان ومفكرة .

ودهشت لأنها لم تضم هذه الذكريات في علبة كما فعل ستيوبا

جاجوريف، وكما فعل البستاني العجوز ، سائق أم فريدي . صفوة القول كانت هذه هي المرة الأولى خلال أبحاثي لا أحصل على علبة . وأضحكتني هذه الفكرة .

– ما الذي يطربك ؟

– لاشيء .

تأملت غلافي الكتابين ، كان مرسوماً على أحدهما وجه رجل صيني يلبس قبعة مستديرة ، وفي الخلفية ضباب أزرق ، والعنوان شارلي شان أما الغلاف الآخر فكان أصفر مرسوماً في منتصفه قناع يتخلله ريشة أوزة، والعنوان خطابات من مجهول وقالت: دنيس مغرمة بقراءة الروايات البوليسية . وإليك هذا أيضا

وناولتني مفكرة بغلاف من جلد التمساح

– شكرا

فتحت المفكرة ورحت أقلب صفحاتها . لم يكن مدون بها أي شيء ، ولا اسم ، ولا موعد . كانت مفكرة بالأيام والشهور ولكنها لم تكن تشير إلى السنة . ووجدت أخيرا بين صفحاتها ورقة بسطتها وقرأت فيها

الجمهورية الفرنسية .

إدارة شرطة مديرية السين

مستخرج من سجلات شهادات ميلاد الحي الثالث عشر بباريس لسنة ١٩١٧

في ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٧ ، في الساعة الثالثة مساء وضعت هنرييت بوجانرت ، زوجة بول كودروز مولودة أنثى باسم

دنيز إيفيت كودروز

وذلك في البيت رقم ٩ مكرر برصيف أوسترليتز

ودنيز إيفيت كودروز المذكورة تزوجت في ٣ إبريل سنة ١٩٣٩ بجيمي بدروستيرن .

صورة طبق الأصل

باريس فى ١٦ يونية سنة ١٩٣٩

قلت أترين ؟

ألقيت إلىّ المستخرج الرسمى نظرة دهشة وسألتها

– هل عرفت زوجها ؟.. هذا المدعو جيمى بدرو ستيرن ؟

– لم تقل لى دنيز أبدا أنها كانت متزوجة .. هل كنت تعرف أنت ذلك ؟

– كلا .

دسست المفكرة وشهادة الميلاد فى جيبى الداخلى مع الظرف الذى يحتوى على الصور ، ولا أدرى لماذا خطرت لى فكرة إخفاء كل هذه الكنوز داخل بطانة سترتى بمجرد أن أستطيع ذلك .

– أشكرك إذ زودتنى بكل هذه التذكارات .

– العفو يامسيو ماك إيفوى . كدت أنسى هذا

وأخرجت من جيبها ظرفا وأردفت تقول

– هذه آخر رسالة تلقيتها من دنيز .

– بسطت الورقة وقرأت

«ميجيف فى ١٤ فبراير»

عزيزتى هيلين ، سنعبر الحدود غدا ، أنا وبدرو . سأكتب لك من هناك بأسرع مايمكن .

وفى الانتظار إليكى رقم تليفون شخص فى باريس تستطيعين الاتصال بى عن طريقه

أوليج دى فريديه . تليفون رقم ٧٣ – ٥٤ أوتيى . لك قبلاتى

دنيـز

– هل اتصلت بها ؟

– نعم . ولكن قيل لى فى كل مرة أن صاحب هذا الاسم غير موجود

– ومن هو فريديه هذا ؟

– لا أدرى . لم تحدثنى بنيز عنه قبل ذلك قط .

وكانت الشمس قد بدأت تغرب عن الغرفة شيئا فشيئا ، فأضاءت المصباح الصغير الموجود فوق المنضدة المنخفضة بجوار الأريكة

وقلت لها

– يسرنى أن أرى الغرفة التى أقمت فيها

– طبعا ، بكل سرور

وعبرنا ممرا ، وفتحت بابا إلى اليمين وقالت

– هذه هى الغرفة . لم أعد أستخدمها بعد . إننى أنام فى غرفة الأصدقاء ، تلك التى تطل على الفناء كما تعرف .

بقيت واقفا فى إطار الباب . كان النور لايزال واضحا ، وكانت تتدلى من جانبى النافذة ستارة لونها أحمر بنفسجي ، والجدران مكسوة بورق عليه رسومات مختلفة ، وسألتنى

– هل تعرف الغرفة ؟

– نعم .

كان هناك فراش فى آخر الغرفة ، فمضيت وجلست فوقه وقلت

– هل أستطيع البقاء وحدى بضع دقائق ؟

– طبعا

– قد يعيد ذلك إلى ذاكرتى الأوقات السعيدة .

ألقت إلىّ نظرة حزينة ، هزت رأسها وقالت

– سأعد قليلا من الشاى .

غادرت الغرفة ، ورددت البصر حولى . كانت الأرضية الباركيه فى هذه الغرفة قد امتدت إليها يد التلف هى الأخرى ، وينقصها قطع من الخشب تركت كما هى ولم تسد ثغراتها . وعلى الجدار المقابل للنافذة مدفأة من الرخام الأبيض فوقها مرآة مجلاة بأصداف فى زواياها الأربع . واستلقيت فوق الفراش وحدقت فى السقف ثم فى الرسومات على الورق . وألصقت

جبيني بالحائط لكي أحسن للرؤية ولكي أميزها جيدا . كانت الرسومات كثيرة

مناظر ريفية وفتيات بباروكات يتمرجحن ، ورعاة بسراويل فضفاضة يعزفون على الماندولين ، وغابات في ضوء القمر . لم تذكرني كل تلك الرسومات بأى شىء ، ومع ذلك فلا ريب إنها كانت مألوفة لى عندما كنت أرقد في هذا الفراش . وتأملت السقف والجدران والباب ، باحثا عن علامة أو أثر ما دون أن أدرى عن أى شىء أبحث . ولكن لم تتعلق عيناى بأى شىء

نهضت ومضيت إلى النافذة ونظرت إلى أسفل

كان الشارع مقفرا وأشد عتمة عنه عما أتيت . وكان الشرطى لايزال على الرصيف المقابل يقوم بحراسته . وعندما أحنيت رأسى إلى اليسار رأيت ميدانا مقفرا هو الآخر وشرطيين أخرين يقومون بالحراسة

وبدا كأن نوافذ كل تلك البيوت تمتص الظلام الذى راح يهبط شيئا فشيئا . وبدا واضحا أن لا أحد يسكنها

عندئذ ومض في ذهنى شىء لم أدر كنهه . فقد سبب لى المنظر الذى طالعنى من مكانى إحساسا بالقلق وبشىء من الخوف عرفتهما قبل ذلك تلك الواجهات المظلمة وذلك الشارع المقفر ، وتلك الأشباح القائمة بالحراسة في وقت الغروب   أزعجنى كل ذلك بنفس الطريقة الخادعة التى أسمع بها أغنية أو أشم بها عطرا كان مألوفا لى فيما سبق . وكنت على يقين أنه سبق أن وقفت كثيرا في مكانى هذا ، جامدا ، أترقب دون أن أبدى أية حركة ، وحتى دون أن أجرؤ على إضاءة مصباح

عندما عدت إلى غرفة الاستقبال حسبت أن أحدا ليس بها . ولكنها كانت مستلقية فوق الأريكة القطيفة . كانت نائمة . واقتربت في رفق ، وجلست في الناحية الأخرى من الأريكة . كانت صينية الشاى ، وعليها البراد وفناجين ، على الأرض ، فوق السجادة الصوف ، وتنحنحت ، ولكنها لم تستيقظ .

وعندئذ صببت الشاى فى الفناجين ، وكان باردا

كان المصباح الذى بجوار الأريكة يترك جزءا كبيرا من الغرفة فى الظلام وميزت بالكاد المنضدة والمانيكان وماكينة الخياطة ، تلك الأشياء التى تركتها دنيز هنا . كيف كانت أمسياتنا فى هذه الغرفة ؟ وكيف أعرف ذلك .

شربت الشاى فى جرعات صغيرة ، وسمعتها تتنفس . وكان تنفسها يكاد لا يلحظ . ولكن الصمت كان يطبق على الغرفة بحيث إن أقل حركة ، وأقل همسة كانت تتضح وضوحا يتسم بالقلق .. لماذا اوقظها ؟ إنها لن تستطيع أن تخبرنى بالمزيد . ألقيت فنجانى فوق السجادة الصوف ، وطقطقت الأرضية البركيه فى نفس اللحظة التى غادرت فيها الغرفة وخرجت إلى الرواق .

بحثت عن الباب متحسسا ، ثم عن نور السلم ، وأغلقت الباب خلفى بكل هدوء ممكن . وما كدت أدفع الباب الآخر ذا الألواح الزجاجية ، لكى أخرج من البيت حتى ومض فى ذهنى ذلك الشىء الغريب الذى أحسست به وأنا أنظر من نافذة الغرفة . كان مدخل البيت مضاء بكرة فى السقف تشع نورا أبيض . واعتدت على هذا النور الحاد شيئا فشيئا . وبقيت واقفاً أتأمل الجدران الرمادية وألواح الباب التى تلمع

اعترانى إحساس كأجزاء من حلم متهرب تحاول أن تجمعها لكى تستعيد الحلم كله. رأيت نفسى أمشى فى باريس معتمة، وأدفع باب هذا البيت بشارع كابماسيريس رقم ١٠. وعندئذ انبهرت عيناى فجأة، ومرت بضع ثوان لم أعد أرى فيها شيئا طالما كان النور الأبيض للمدخل متناقضا مع ظلام الشارع.

إلى أى وقت يعود ذلك؟ ألى الوقت الذى كنت أدعى فيه بدرو ماك إيفوى، حيث كنت أعود هنا كل ليلة. هل تعرفت على المدخل وعلى المسحة الكبيرة والجدران الرمادية وكسرة السقف المطوقة بحلقة من النحاس ؟ كنت أرى خلف الألواح الزجاجية بداية السلم الذى راودنى إحساس بأن أرتقيه

ببطء لكى أعيد الحركات التى كنت أقوم بها وأن أتبع خط سيرى القديم .

وأظن أننا لا نزال نسمع في مداخل البيوت أصداء خطوات الذين سبقونا في عبوره ، والذين أختفوا بعد ذلك . إن شيئا يستمر في الاهتزاز بعد مرورهم .. موجات تزداد ضعفا شيئا فشيئا ، ولكننا نحس بها إذا أنتبهنا جيدا . وعلى كل حال ، قد لا أكون هذا البدرو ماك إيفوى على الإطلاق . لم أكن شيئا ، ولكن موجات تعترينى تارة بعيدة وتارة أشد قوة وكل هذه الأصداء المتناثرة التى تسبح فى الهواء تتبلور وتتجمع فإذا بها أنا .

فندق كاستيل بشارع كامبون ، أمام مكتب الاستعلامات غرفة استقبال صغيرة ، وفى المكتبة ذات الألواح الزجاجية مجلدات تضم قصة الإصلاحات والتجديدات التى قام بها ل . دى فيل كاستيل لعلنى أخذت ذات مساء كتابا من هذه الكتب ونسيت داخله خطابا أو صورة أو برقية لكى أشير بها إلى الصفحة التى أقرؤها لكى أرجع إليها بعد ذلك . ولكنى لم أجرؤ أن أطلب من موظف الاستعلامات السماح بتقليب صفحات المجلدات السبعة عشر لكى أجد الأثر الذى يدلنى على نفسى .

وفى آخر الفندق فناء يحده جدار به تعريشات خضراء معظمها اللبلاب . والأرض مبلطة ببلاط لونه أصفر ، بلون رمال أحد ملاعب التنس . موائد وكراسى من الخيزران .

عشت هنا إذن مع دنيز كودروز . أكانت غرفتنا تطل عى شارع كامبون أم على الفناء ؟

- ١٧ -

٩ مكرر رصيف أوسترليتز ، بيت من ثلاثة طوابق . بوابة تؤدى إلى رواق بجدران صفراء . مقهى لافتته «إلى البحرية» . وخلف الباب الزجاجى لوحة مكتوب عليها بحروف حمراء فاقعة

«مين سبريخت فلا آمش» .

عشرة أشخاص متجمعون أمام منصة الشرب . جلست إلى إحدى الموائد الشاغرة ، أمام الحائط الداخلى ، وعلى هذا الآخر صورة فوتوغرافية كبيرة لميناء «أنفرس» كما هو مكتوب فى أسفلها

كان الزبائن يتكلمون بصوت مرتفع جدا أمام منصة الشرب . لا ريب أنهم كانوا يشتغلون جميعا فى الحى ، ويتناولون شراب المساء وبجوار باب الدخول الزجاجى سمكة معدنية يقف أمامها رجل يرتدى حلة كحلية اللون ، وربطة عنق وتتعارض ثيابه مع الآخرين الذين يلبسون سترات مبطنة بالفرو وأخرى من الجلد أو ثياب العمل . وكان يلعب ببرود وهو يجذب ذيل السمكة اللولبى

آلم دخان السجائر والغلايين عينى وأثار سعالى . وكان الجو يفوح برائحة دهن الخنزير .

- ماذا تريد ؟

لم أره وهو يقترب منى . بل حسبت أن أحدا لن يأتى ويسألنى ما أريد طالما أن جلوسى إلى مائدة فى آخر المحل لم يلحظه أحد .

- قهوة اسبرسو .

كان رجلا فى الستين من عمره ، شعره أبيض ووجهه أحمر ، احتقن وجهه قبل الأوان لاريب بسبب إفراطه فى الشراب . عيناه زرقاوان فاتحتان تبدوان أيضا أكثر شحوبا على هذه البشرة الحمراء الفاقعة . كان هناك شىء مبتهج فى ذلك الأبيض ، وذلك الأحمر ، وذلك الأزرق ، تلك الألوان المميزة للخزف الصينى .

قلت له حين هم بالذهاب إلى منصة الشرب

– أرجو المعذرة .. ما معنى العبارة التى على اللوحة

– مين سبريخت فلا آش؟

نطق بتلك الكلمات بصوت رنان .. وقلت نعم

– معناها «نحن نتحدث الفلمندية».

وزرعنى مكانى ومضى نحو المنصة وهو يتمايل فى مشيته، ويدفع بذراعه فى غير رفق الزبائن الذين يعترضون طريقه.

وعاد بفنجان القهوة، وكان يمسكه بيديه وذراعاه ممدودتان إلى الأمام، كما لو كان يبذل مجهوداً كبيراً حتى لا يقع الفنجان منه.

– ها هى

ووضع الفنجان فى منتصف المائدة وهو يلهث ، كعداء الماراثون حين يصل إلى الهدف.

– هل يعنى اسم كودروز لك شيئا أيها السيد؟

ألقيت عليه السؤال فى غلظة، فتهالك أمامى على المقعد، وعقد ذراعيه وهو لا يزال يلهث، وقال

– لماذا ؟ .. هل عرفت كودروز؟

– كلا . ولكنى سمعت عنه بين عشيرتى.

أحمر وجهه كالطوب الأحمر، وتفصد العرق من ارنبتى أنفه:

– كودروز .. كان يقطن فوق .. فى الطابق الثانى.

كان يتكلم بلكنة خفيفة .. ورشفت جرعة من القهوة وقد استقر منى العزم أن أدعه يتكلم لأن سؤالا آخر قد ينفره.

– كان يشتغل في محطة أوستر ليتز.. وكانت زوجته من انفرس مثلى.

– كانت له ابنة ، أليس كذلك ؟

ابتسم وقال نعم . طفلة صغيرة . هل رأيتها ؟

– كلا . لكنى سمعت عنها.

•

– ماذا جرى لها؟

– هذا ما أحاول معرفته بالذات.

كانت تأتي كل صباح لكى تأخذ سجائر أبيها .. لم يكن كودروز يدخن إلا سجائر مادة لورنيز .. سجائر بلجيكية .

غاص فى ذاكرته . أظن أنه لم يعد يسمع مثلى صخب الأصوات والضحكات ولا صوت بندقية رش السمكة المعدنية بجوارنا.

– رجل شهم، كودروز .. كنت أتناول العشاء معهما فى أكثر الأحيان. وكنت أتحدث مع زوجته باللغة الفلمندية.

– ألم تسمع عنهما بعد ذلك؟

– بعد أن مات .. عادت زوجته إلى أنفرس.

ومسح المائدة بحركة كبيرة من يده وقال

– يعود كل هذا إلى وقت طويل.

– تقول إنها كانت تأتى لكى تأخذ سجائر أبيها.. من أية ماركة.

– لورنز.

تمنيت أن أتذكر هذا الاسم.

– طفلة غريبة الأطوار. كانت وهى فى العاشرة تجيد لعب البلياردو مع زبائنى.

وأشار إلى باب آخر فى صدر المقهى، لا ريب يؤدى إلى قاعة البلياردو. تعلمت هذه اللعبة هنا إذن. وقال

– انتظر .. سأريك شيئاً.

نهض، ومشى نحو المنصة، ومن جديد أبعد بذراعيه الذين يعترضون طريقه، وكان أغلبهم من الزبائن، يلبسون قبعات البحارة ويتكلمون لغة غريبة.. اللغة الفلمندية دون شك. واعتقدت أن ذلك يرجع إلى الزوارق الراسية، تحت ، على رصيف أوسترليتز، والتى لابد أن تكون قد جاءت من بلجيكا.

- انظر إلى هذه .

كان قد جلس أمامي وعرض عليّ مجلة قديمة للأزياء على غلافها صورة فتـاة كستنائية الشعر، فاتحة العينين، فى ملامح وجهها شيء آسيوى، عرفتها على الفور دنيز ، كانت ترتدى بوليرو أسود وتمسك فى يدها زهرة أوركيد..

- ها هى دنيز، ابنة كودروز .. وأنت ترى أنها فتاة جميلة.. عملت عارضة أزياء.. عرفتها ولما تزال طفلة.

كان غلاف المجلة مبقعا وعليه شريط لاصق شفاف.

- كنت أراها دائما عندما كانت تأتى لكى تأخذ سجائر أبيها

- ألم تكن خياطة؟

- كلا .. لا أظن ذلك.

- أولا تعرف حقا ماذا جرى لها ؟

- كلا .

- ألديك عنوان أمها فى انفرس.

هز رأسه . كان بادى الحزن . وقال

- كل هذا انتهى يا صاحبى.

لماذا ؟

سألته ألا تريد أن تعيرنى هذه المجلة؟

- بلى يا صاحبى.. لكن على وعد بأن تعيدها إلىّ .

- أعدك بذلك.

- إننى أتمسك بها، فهى تذكار للأسرة.

- فى أية ساعة كانت تأتى لكى تأخذ السجائر.

فى الثامنة ألا الربع دائما ، قبل أن تذهب إلى المدرسة.

- أية مدرسة.

- بشارع جينر .. وكنت أرافقها فى أغلب الأحيان، مع أبيها.

مددت يدى نحو المجلة، وأسرعت بإمساكها ، وأخذتها وقلبى يدق بشدة، مخافة أن يغير رأيه ويحتفظ بها. وقلت:

– شكراً . سأردها لك غداً.

– أرجوك أن لا تنسى.

ونظر إلىّ فى ارتياب .

– ولكن لماذا أنت مهتم هكذا ؟ هل أنت من الأسرة ؟

– نعم .

لم يسعنى إلا تأمل غلاف المجلة . كانت دنيز تبدو أصغر قليلاً منها فى الصور التي معي ، كانت تضع فى أذنيها قرطا وتتدلى من زهرة الأوركيد التى تمسكها فى يدها أغصان من الرخى كانت تخفى نصف عنقها. وكان هناك ، فى خلفية الصورة ملاك من الخشب المنحوت، وفى أسفلها في الركن الأيسر هذه الكلمات التى تظهر حروفها الصغيرة الحمراء على البوليرو الأسود: تصوير جان ميشيل منصور.

وسألنى هل تريد أن تشرب شيئاً؟

– كلا : شكراً.

– قهوتك على حسابى إذن.

– هذه مكرمة منك.

نهضت والمجلة في يدى ، بينما تقدمنى وشق لى طريقا خلال الزبائن الذين ازداد عددهم عن ذى قبل . وقال لهم كلمة باللغة الفلمندية ، وأخذنا وقتا طويلا لكى نبلغ الباب. فتحه ، وجفف جبينه ثم قال وهو يشير إلى المجلة:

– لا تنس أن تعيدها إلىّ .

وأغلق الباب خلفنا وتبعنى فوق الرصيف.

– هل ترى ؟ .. كانوا يقيمون فوق .. فى الطابق الثانى.

كانت النوافذ مضاءة . لمحت من نافذة إحدى الغرف الأخيرة دولابا من

الخشب الداكن .

– هناك سكان آخرون.

– في أية غرفة كنت تتناول العشاء معهم؟

– في هذه ، التي على اليسار

وأشار إلى النافذة التي يتكلم عنها.

– وغرفة دنيز؟

– تطل على الناحية الأخرى.. على الفناء.

كان واقفا بجوارى يفكر، وقلت له أخيرا:

– إلى الملتقى .. سأعيد إليك المجلة.

– إلى الملتقى .

وعاد إلى المقهى، ونظر إلى ورأسه الأحمر الضخم لصق الزجاج، وكان دخان السجائر والغلايين يلف الزبائن في نوع من الضباب الأصفر.. وراح ذلك الرأس الأحمر الضخم يزداد غموضاً بدوره بسبب البخار الذي ينفثه من بين شفتيه على لوح الزجاج.

كان الليل قد بدأ يهبط.. هذه هي الساعة التي كانت دنيز تعود فيها من المدرسة، ذلك إذا كانت تبقى لمتابعة دروس المساء أي طريق كانت تسلك؟ أكانت تأتي من اليمين أم من اليسار ؟ نسيت أن أسأل صاحب المقهى عن ذلك. كان المرور في ذلك الوقت أقل بكثير. وكانت أغصان أشجار الدلب تصنع قبة فوق رصيف أوسترليتز، وكانت المحطة نفسها، وهي تبعد قليلا، تشبه دون ريب محطة إحدى مدن الجنوب الغربي . وبعدها حديقة النباتات. وساهمت ظلال سوق الخضر والصمت العميق المطبق عليه في هدوء الحي..

اجتزت باب البيت وأدرت نور السلم. البهو مبلط ببلاط أسود وسنجابي، وممسحة من الحديد . وعلى الجدار الأصفر صناديق الخطابات، ودائما تلك الرائحة..

رائحة دهن الخنزير.

وأطبقت عينى وأنا أحدث نفسى أننى إذا ضغطت بأصابعى على جبينى وأمعنت التفكير فربما أستطيع أن أسمع، من بعيد جدا، فرقعة صندلها فوق درجات السلم.

- ١٨ -

ولكننى أعتقد أننا التقينا ، أنا ودنيز ، لأول مرة فى بار أحد الفنادق. كنت مع الرجل الذى يظهر فى الصورة، وأعنى به هذا الفريدى هوارد دى لوز، صديقى منذ الطفولة ، وجاى أورلو. كانا يقيمان فى الفندق بعض الوقت لأنهما كانا عائدين من أمريكا. وقالت لى جاى أورلو إنها تنتظر صديقة، فتاة تعرفت بها حديثا.

كانت مقبلة نحونا، وعلى الفور أثار وجهها انتباهى.. وجه آسيوية رغم أنها كانت تكاد تكون شقراء.. عينان فاتحتان جدا مغوليتان ووجنتان عاليتان. وكانت ترتدى قبعة غريبة تعيد إلى الذهن ذكرى القبعات البترولية، وشعرها قصير.

وقال لنا فريدى وجاى أورلو أن ننتظرها لحظة، ثم صعدا إلى غرفتهما وبقينا وحدنا ، أنا ودنيز، كل منا أمام الآخر، وابتسمت لى.

لم نتكلم . كانت عيناها شاحبتين، يتخللهما من وقت لآخر شىء أخضر.

- ١٩ -

جان ميشيل منصور، شارع جابرييل رقم ١ ، بالحى الثامن عشر.
تليفون رقم ٧٢٠٠١ ك ل.

- ٢٠ -

قال لى عندما جلست إلى مائدته، فى مقهى بشارع بلانش: تواعد معي على اللقاء فيه فى نحو الساعة السادسة مساء.

- أرجو المعذرة .. ولكننى أتواعد دائما على اللقاء فى الخارج، خصوصا فى أول لقاء. والآن ، وقد تعارفنا ، يمكننا المضى إلى مسكنى.

عرفته بسهولة لأنه أوضح لى أنه سيلبس حلة من القطيفة الخضراء الداكنة، وأن شعر رأسه أبيض.. أبيض تماما ، وقصير وكان شعره قصيرا حقا يتعارض مع أهدابه الطويلة، الدائمة الاهتزاز. وعيناه لوزيتا الشكل وفمه يبدو كفم النساء: شفته العليا ملتوية ، والسفلى مشدودة تنطق بالعزم والقوة.

وحين وقف، بدا معتدل القامة ، ولبس معطفا واقيا. من المطر وخرجنا من المقهى.

وعندما بلغنا أول شارع كليش، أشار إلى بيت ، ناحية المولان روج وقال لى

- فى وقت آخر كنت أتواعد معك للقاء فى مقهى جراف.. هناك . ولكنه أغلق أبوابه منذ وقت طويل.

وعبرنا الشارع ودلفنا إلى شارع كوستو. كان يسرع الخطى، ويلقى النظر خلسة إلى البارات الخضراء المزرقة على الرصيف المقابل . وعندما بلغنا مستوى الجراج الكبير كاد يجرى، ولم يقف إلا فى شارع ليبيك . وقال وهو مبهور الأنفاس:

- معذرة .. هذا الشارع يعيد إلىّ ذكريات غريبة..

معذرة .

كان مذعورا حقا. بل أظن أنه كان يرتجف.

– لا بأس الآن . هنا، كل شئ على ما يرام.

وابتسم وهو يرى أمامه امتداد شارع ليبيك ببضائعه المعروضة فى السوق ، ومحلات الأغذية التى تسطع بالأنوار.

وعرجنا على شارع الراهبات. كان يمشى الآن بقدم ثابتة هادئة . ورغبت أن أسأله أية ذكريات غريبة يوحيها إليه شارع كوستو، لكننى لم أجرؤ على التطفل ، ولا أن أسبب له تلك العصبية التى أثارت دهشتى. وفجأة ، قبل أن تصل إلى ميدان الراهبات أسرع الخطى من جديد . وكنت أمشى على يمينه . وفى اللحظة التى انعطفنا فيها إلى شارع جرمان بيلون رأيته يلقى نظرة مذعورة إلى ذلك الشارع الضيق الذى يهبط فى منحدر شديد الانحدار حتى الشارع الجانبى. وشدد الضغط على ذراعى بكل قواه ، وتعلق بى كأنه يريد أن ينتزع نفسه من تأمل هذا الشارع، وجررته تقريبا حتى الرصيف الآخر..

– شكرا . أنت تعرف . أنه أمر غريب جداً.

وتردد وهو على وشك الاعتراف وقال

– إننى .. أشعر بالدوار كلما عبرت هذه الناحية من شارع جرمان بيلون .. هذا أمر أقوى منى، هذا الشارع كان فيما سبق .. كان فيه مكان.

وقطع كلامه ثم قال وهو يبتسم ابتسامة متكهربة

– أوه ، هذا غباء منى. لقد تغيرت مونمارتر كثيرا، إنه لأمر يطول شرحه، فأنت لم تعرف مونمارتر فى الأيام الخوالى ؟

– وما أدراه عن ذلك ؟

كان يقيم فى شارع جابرييل، فى بيت بجوار حدائق ساكر كور وارتقينا سلم الخدمة. واستغرق وقتا طويلا فى فتح الباب. ثلاثة أقفال أدار فيها مفاتيح مختلفة فى بطء ودقة من يحاول فتح خزانة ذات تركيبة خاصة.

شقة صغيرة تتكون من غرفة استقبال وغرفة أخرى كانتا فيما سبق عبارة عن غرفة واحدة. ولكنه وضع فيها ستائر من الساتان الوردى ثبتها بشرائط فضية ، وجعل منها بهذه الطريقة غرفتين منفصلتين . وغلف جدران غرفة الصالون بستائر زرقاء سماوية . وغطى النافذة الوحيدة بستارة من

نفس اللون. مناضد صغيرة مدهونة باللاكيه الأسود فوقها تحف وطرائف من العاج أو من اليشب. ومقاعد ضخمة منجدة بقماش لونه أخضر فاتح وأريكة بتشجيرة خضراء فاتحة هى الأخرى، أضفى كل ذلك على الغرفة طابعا أنيقا وجميلا . بينما انبعث الضوء من مصابيح فضية جدارية.

وقال لى اجلس.

وجلست على الأريكة . وجلس بجوارى .

أخرجت من جيب سترتى مجلة الأزياء وأشرت إلى صورة الغلاف، حيث تظهر دنيز، وأخذ المجلة من يدى، ووضع على عينيه نظارة ذات إطار سميك من الصدف.

– نعم .. نعم .. تصوير جان ميشيل منصور.. إنه أنا . ليس هناك أى شك فى هذا!

– هل تتذكر هذه الفتاة ؟

– أبداً . لم أعمل لهذه المجلة إلا نادرا ، فهى مجلة صغيرة للأزياء. أما أنا فكنت أزاول عملى دائما مع مجلة فوج، وهى مجلة مشهورة كما تعلم

أراد أن يظهر لى أهميته.

– ليست لديك أية تفاصيل فيما يتعلق بهذه الصور ؟

نظر إلى فى شىء من الطرب، ورأيت تحت أنوار المصابيح الجدارية أن بشرة وجهه مملوءة بغضون صغيرة وببقع من النمش قال

– أى صديقى العزيز، سأقول لك ذلك فى التو والحال.

نهض والمجلة فى يده، وأدار مفتاحا فى باب لم أكن لحظته لأن ستارة من اللون الأزرق السماوى، كستائر الجدران كانت مسدلة فوقه. وأفضى الباب إلى غرفة صغيرة، وسمعته يفتح أدراجا معدنية كثيرة. وبعد بضع دقائق خرج من الغرفة وأغلق بابها بعناية، وقال لى

– إليك ما تريد ، عندى البطاقة الصغيرة ومعها النيجاتيف . إننى أحتفظ بكل شئ منذ البداية . كل شئ مرتب بالسنة وبالحروف الأبجدية.

وعاد فجلس بجوارى ، واطلع على البطاقة ثم قال

– دنيز كودروز؟

– نعم .

– إنها لم تتصور عندى بعد ذلك قط. الآن أتذكر هذه الفتاة. التقط هونيجن هون لها صوراً كثيرة.

– من ؟

– هونيجن هون .. مصور ألمانى .، نعم ، هو ذلك التقط هونيجن هون لها صورا كثيرة.

فى كل مرة كان منصور ينطق فيها بذلك الاسم ذى الرنة الخيالية الشاكية ، كنت أحس بعينى دنيز الشاحبتين تستقران على، كالمرة الأولى.

– لدى عنوانها فى ذلك الوقت، إذا كان ذلك يهمك؟

– إنه يهمنى.

– ٩٧ شارع روما بباريس بالحى السابع عشر.. ٩٧ شارع روما..

ورفع رأسه نحوى فجأة وقد ابيض وجهه بصورة مخيفة، وجحظت عيناه، وعاد يقول

– ٩٧ شارع روما..

سألته ولكن ، ماذا بك ؟

– إننى أتذكر هذه الفتاة جيداً الآن . كان لى صديق يقيم فى نفس البيت.

ونظر إلى فى شك وريبة ، وبدا عليه نفس الاضطراب الذى طرأ عليه أثناء عبوره شارع كوستو وأول شارع جارمان بيلون.

– مصادفة عجيبة. إننى أتذكر ذلك جيداً الآن. فقد مضيت إليها فى مسكنها بشارع روما لكى ألتقط لها صورا. وانتهزت الفرصة لكى أحيى ذلك الصديق.. كان يقيم فى الشقة التى فوقها.

– مضيت إليها؟

– نعم . ولكننا التقطنا الصور فى مسكن صديقى. وكان برفقتنا.

– أى صديق؟

ازداد شحوب وجهه، ونطقت كل قسماته بخوف شديد

– سوف .. سأقول لك . ولكنى قبل ذلك .. أريد أن أشرب شيئاً لكى أسترد جأشى

ونهض ومضى إلى منضدة صغيرة متحركة ، دفعها أمام الأريكة . وكان على سطحها العلوى بضع زجاجات صغيرة بسدادات من البللور مزودة بسلاسل فى آخرها حلقات من الفضة كتلك التى يضعها الموسيقيون الألمان حول أعناقهم ، ومحفور عليها أسماء المشروبات . وقال

– ليس عندى غير كحول حلوة .. أيضايقك ذلك ؟

– إطلاقا

– سأتناول قليلا من مارى بريزار .. وأنت ؟

– أنا أيضاً.

صب المارى بريزار فى كأسين صغيرتين . وعندما شربت ذلك المشروب اختلط بالساتان والعاج والأشياء – المذهبة المقززة بعض الشىء – التى حولى.

كان جوهر تلك الشقة بالذات.

– هذا الصديق الذى كان يقيم فى شارع روما .. قتل .

نطق بالكلمة الأخيرة فى تحفظ كبير ، ولم يكن هناك أى شك فى أنه بذل كل هذا الجهد من أجلى وإلا ما واتته الشجاعة باستخدام مثل تلك الكلمة الشديدة الوضوح.

– كان يونانيا من مصر .. كتب قصائد وروايتين.

– هل تعتقد أن دنيز كانت تعرفه؟

– أوه، كان لابد لها أن تلتقى به فى السلم.

نطق بهذه العبارة فى ضيق، لأن هذه النقطة لم يكن لها أهمية فى نظره..

- و ... هل حدث ذلك في البيت ؟

- نعم

- هل كانت دنيز كودروز تقيم في البيت في ذلك الوقت ؟

ولكن بدا عليه أنه لم يسمع سؤالي .

- وقعت الجريمة بالليل.. حيث استقبل شخصا في شقته.

فقد كان يستقبل فيها كل من هب ودب.

- هل اهتدوا إلى القاتل ؟

هز كتفيه وقال إنهم لا يهتدون إلى هذا النوع من القتلة أبدا .

كنت على يقين من أنه سينتهي هذه النهاية .. لو أنك رأيت سحنة بعض الشبان الذين كان يدعوهم إلى مسكنه بالليل.. وحتى في وضح النهار لتملكك الخوف.

وابتسم ابتسامة غريبة. كانت خليطا من التأثر والخوف في نفس الوقت. وسألته

- ما اسم صديقك ؟

- إليك سكوفي .. يوناني من الإسكندرية.

وفجأة نهض، وأزاح الستائر الحريرية الزرقاء السماوية كاشفا عن النافذة ثم عاد مكانه بجواري ، فوق الأريكة وقال

- أرجو المعذرة . لكن هناك لحظات أشعر فيها بأن شخصا يختفي خلف الستائر. ألا تريد قليلا من الماري بريزار ثانية ؟ .. نعم . قليلا من الماري بريزار.

كان يبذل جهده لكي يكتسب لهجة مرحة ويشدد الضغط على ذراعي كما لو يثبت لنفسه أنني موجود بجواره حقا.

- أقبل سكوفي للإقامة في فرنسا.. عرفته في مونمارتر.. كتب رواية جميلة عنوانها «سفينة في المرسى» .

قلت فى صوت ثابت وأنا أضغط على كل كلمة لكى يتنازل ويسمع سؤالى:

– ولكن إذا كنت تقول لى أيها السيد إن دنيز كانت تقيم فى الشقة التى تحته فلابد أنها سمعت شيئاً غير عادى فى تلك الليلة، ولا ريب أنهم استجوبوها.

– ربما.

وهز كتفيه، كلا. كان من المؤكد أن دنيز كودروز هذه ، التى تهمنى كل الاهتمام والتى أريد أن أعرف عنها كل شئ ، لم تكن تهمه على الإطلاق.

– أفظع ما هناك هو أننى أعرف القاتل، رجل يخدع كل من يراه لأن له وجه ملاك، ومع ذلك فإن عينيه كانتا بالغتى القسوة.. عينان سنجابيتان.

وأخذته رعشة كما لو أن الرجل الذى يتحدث عنه كان واقفا أمامه، ينفذ إليه بعينيه السنجابيتين:

– رجل خليع منفر جدا . آخر مرة رأيته فيها كان أثناء الاحتلال فى مطعم كائن بقبو بشارع كَامبو .. كان يصاحب ألمانياً.

وتهدج صوته لهذه الذكرى.. ورغم أننى كنت مستغرقا فى التفكير فى دنيز فإن صوته الحاد، وشكواه الغاضبة سببا لى أحساسا تعذر علىّ تبريره رغم شدة وضوحه. والواقع أنه كان جد غيور من مصير صديقه، وحقد على ذلك الرجل ذى العينين السنجابيتين لأنه لم يقتله هو بالذات.

– إنه لا يزال على قيد الحياة، وهو يعيش فى باريس دائما.. عرفت ذلك من شخص ، وقد تغيرت قسمات وجهه، ولم يعد يبدو كملاك طبعا .. هل تريد أن تسمع صوته.

لم أجد متسعا من الوقت لكى أرد على سؤاله المذهل، فقد تناول التليفون من فوق وسادة حمراء بجوارنا ، وأدار رقما ، وأعطانى السماعة .

– سوف تسمعه .. ولكن انتبه ، فهو يدعو نفسه الآن «الفارس الأزرق».

لم أسمع في بادىء الأمر غير رنين وجيز متكرر يدل على أن الخط مشغول ، ثم ميزت ، خلال الرنين المتقطع ، أصوات رجال ونساء يتبادلون النداءات موريس وجوزى يريدان أن يتكلم رينيه معهما تليفونيا .. لوسيان ينتظر جانو في شارع الجمعية . مدام دى بارى تبحث عن رفيق .. السيبياد بمفرده الليلة .

أحاديث تدور وأصوات يبحث أصحابها بعضهم عن بعض ، رغم الرنين الذى يكتمها باستمرار . وجميع أولئك الناس الذين لا وجود لهم يحاولون تبادل أرقام تليفوناتهم فيما بينهم ، ويتفقون على كلمة سر على أمل اللقاء وأخيرا سمعت صوتا أقرب من أصوات الآخرين يقول

– الفارس الأزرق ليس لديه ما يشغله الليلة . الفارس الأزرق حر الليلة أعطني رقم تليفونك .. أعطني رقم تليفونك .

وسألني منصور حسنا . هل تسمعه .. هل تسمعه .

وألصق أذنه بالسماعة واقترب بوجهه مني ، وقال لي

– الرقم الذى أدرته لا يخص أحداً منذ وقت طويل . وقد أدركوا عندئذ أن في مقدورهم الاتصال بهذه الطريقة .

وسكت لكي يحسن الاستماع إلى الفارس الأزرق . ظننت أنا أن كل هذه الأصوات تأتي من وراء القبور أصوات أشخاص اختفوا، أصوات تائهة لا يمكن أن يرد أصحابها إلا من خلال رقم تليفون غير مخصص لأحد

عاد يقول وهو يضغط أذنه على السماعة

– هذا مخيف .. مخيف .. هذا القاتل .. هل تسمع ؟

وأعاد السماعة فجأة وهو يتفصد بالعرق .

– سأريك صورة لصديقي الذى قتله هذا الخليع . وسأحاول أن أعثر لك على روايته «سفينة في المرسى» يجب أن تقرأها

ووقف ، ومضى إلى الغرفة التي تفصلها عن غرفة الاستقبال الستائر

الساتان الحريرية ، ورأيت من خلال زيق فى الستائر سريرا منخفضا فوقه فروة من فراء حيوان آللاما المفترس .

مشيت حتى النافذة ونظرت إلى أسفل حيث قضبان قطار مونمارتر السلكى ، وحدائق ساكركور ، وعن بعد كل باريس بأنوارها وأسطحها وظلالها ، فى متاهات الشوارع والطرقات التقينا ذات يوم أنا ودنيز كودروز، خطوط سير تتلاقى بين تلك التى يتبعها آلاف وآلاف من الناس ، كألف وألف كرة صغيرة فى بلياردو كهربائي ضخم تتضارب وتتصادم بعضها ببعض ، ومن كل هذا لم يبق شىء ، ولا حتى سحابة الضوء التى تنبعث من دودة براقة .

ظهر منصور مبهور الأنفاس ، من بين الستائر الوردية ، وفى يده كتاب وصور كثيرة . وقال

– وجدت .. وجدت .

كان متألق الوجه ، لعله يخشى أن يكون قد أضاع هذه الذخيرة وجلس أمامي وناولنى الكتاب وهو يقول

– ها هو . إننى حريص عليه كل الحرص ، سوف أعيرك إياه ، يجب أن تقرأه إنه كتاب شيق .. وياله من استشعار . لقد توقع «اليك» مصيره .

وتجهم وجهه وقال وسأعطيك أيضا صورتين أو ثلاثا له

– ألا تريد الاحتفاظ بها ؟

– كلا . كلا . لا يقلقنك الأمر ، فلدى منها عشرات ، وكذلك النيجاتيف .

وددت أن أطلب منه أن يستخرج لى بضع صور لدنيز كودروز ، ولكننى لم أجرؤ .

– يسرنى أن أعطى شابا مثلك صورا لـ «اليك» .

– شكرا

– هل كنت تنظر من النافذة ؟ منظر جميل ، أليس كذلك ؟.. وحين أفكر

أن قاتل «اليك» فى مكان ما من هنا !

وراح يربت بظهر يده على كل باريس التى تمتد تحت بصره .

– لا ريب أنه تقدم جداً فى السن الآن .. وأصبح عجوزا مخيفا يصبغ وجهه بالأصباغ.

وأسدل الستائر الوردية بحركة سريعة من يده وهو بادى التأثر والانفعال:

– أوثر ألا أفكر فى ذلك .

قلت له يجب أن أنصرف . مرة أخرى شكرا للصور

– هل تتركنى بمفردى ؟ .. ألا تريد جرعة أخيرة من المارى بريزار ؟

– كلا . شكرا.

رافقنى حتى باب سلم الخدمة ، خلال ممر تكسوه قطيفة زرقاء وتنيره أبليكات بشرائط من قطع صغيرة من الكريستال ، ورأيت بجوار الباب صورة لرجل فى إطار بيضاوى صغير .. رجل أشقر وسيم الوجه وقوى التقاطيع ، له عينان حالمتان

– ريشارد وول .. صديق أمريكى .. مات قتيلا هو الآخر .

ووقف أمامى جامدا ، محدودب الظهر ، وقال فى صوت هامس

– وكان هناك أصدقاء كثيرون .. كثيرون جدا .. لو أننى أحصيتهم ماتوا كلهم .

فتح لى الباب . ورأيته يائسا جدا بحيث عانقته . وقلت له

– لا تقلق يا عزيزى.

– ستأتى لزيارتى ثانية ، أليس كذلك ؟ .. أشعر أننى جد وحيد وأنا خائف .

– سأعود

– وعلى الخصوص ، اقرأ كتاب «اليك».

وجرؤت فقلت هل تستطيع أن تسخرج لي بضع صور لدنيز كودروز ؟

– طبعا .. طبعا . كل ما تريد . احرص على صور «اليك» . وانتبه جيدا وأنت في الشارع

وأغلق الباب . وسمعته يدفع المزاليج ، الواحد بعد الآخر ، وبقيت لحظة في الخارج . تصورته وهو يعود خلال الطرقة الزرقاء إلى غرفة الصالون ذات الستائر الوردية والخضراء ، وكنت على يقين من أنه سيأخذ عندئذ سماعة التليفون ويدير القرص ويلصق أذنه بالسماعة في عصبية وانفعال ، وأنه لن يكل أبدا من سماع نداءات «الفارس الأزرق» من بعيد ، وهو يرتعش.

– ٢١ –

انطلقنا مبكرين، جدا في ذلك الصباح، في سيارة دنيز المكشوفة وأظن أننا مررنا ببوابة سان كلود، وكانت الشمس مشرقة لأن دنيز لبست قبعة عريضة من القش.

وبلغنا قرية في السين والواز، أو لعلها في السين والمارن، وعرجنا إلى طريق خفيف الانحدار، تحيطه الأشجار. وأوقفت دنيز السيارة أمام سور أبيض يؤدي إلى حديقة، ودفعت باب السور وانتظرتها على الرصيف.

شجرة صفصاف متدلية الأغصان في الحديقة، وفي آخرها بيت خشبي رأيت دنيز تدخله.. ولم تلبث أن عادت ومعها طفلة في العاشرة من عمرها، شقراء الشعر وترتدي جونلة سنجابية اللون. وركبنا نحن الثلاثة السيارة. الطفلة في المؤخرة، وأنا بجوار دنيز وكانت تسوق. ولا أتذكر أين تناولنا الغداء.

ولكننا تنزهنا بعد الظهر في حديقة فرساي، وركبنا زورقا وتنزهنا في البحر مع الطفلة. وبهرتني انعكاسات الشمس فأعارتني دنيز نظارتها السوداء.

وفيما بعد، جلسنا ثلاثتنا حول مائدة تظلها مظلة، وأكلت الطفلة جيلاتي مشكلة، خضراء ووردية، وعلى مقربة منا أناس كثيرون بملابس الصيف. موسيقى أوركسترا، وأعدنا الطفلة مع هبوط الليل، وفيما نحن نجتاز المدينة مررنا بحفل شعبي توقفنا فيه.

وأرى الشارع الكبير مقفرا في الغروب، ودنيز والطفلة في سيارة تصادمية من سيارات الملاهي تترك خلفها خطوطا من الشرر. وكانتا تضحكان. وأشارت الطفلة إلى بذراعها. من كانت؟

– ٢٢ –

في ذلك المساء كنت أجلس في مكتب هوت، أفحص الصور التي أخذتها من منصور.

رجل بدين جالس فى منتصف أريكة. يلبس روب دى شامبر من الحرير الموشى بالزهور، يمسك بين إبهامه وسبابته صفحة كتاب فوق ركبته. أصلع، كث الحاجبين، منخفض الجبين، كان يقرأ، أنفه قصير وثخين. ثنية فمه المريرة ووجهه السمين، الشرقى السمات، أشبه بوجه البولدوج. وفوقه الملاك الخشبى المحفور الذى رأيته على غلاف المجلة خلف دنيز.

الصورة الثانية التقطت له وهو واقف ومرتد حلة بيضاء، وقميصاً مخططاً ورباط عنق داكناً. يمسك فى يده عصا لها مقبض كالرمانة، ذراعه الأيمن ملتو ويده مفتوحة يظهر أنه بمظهر متكلف. يقف مشدودا جدا، ويتضح شيئا فشيئا ويتحرك. وأراه يسير فى شارع تحفه الأشجار وهو يعرج.

٧ نوفمبر ١٩٦٥
الموضوع الكسندر سكوفى
مولود فى الاسكندرية «مصر» فى ٢٨ إبريل سنة ١٨٨٥
الجنسية يونانى.
أقبل إلى فرنسا لأول مرة فى سنة ١٩٢٠
أقام بالتعاقب في:
٢٦ بشارع نابولى بباريس «الحى الثامن».
١١ شارع دي برن في شقة مفروشة «الحى الثامن».
فندق شيكاغو ٩٩ بشارع روما بباريس «الحى السابع عشر».
٩٧ بشارع روما «الحى السابع عشر».

كان سكوفى أديبا، نشر مقالات كثيرة في مجلات مختلفة، وقصائد من كل نوع وروايتين: بنسيون بواس دور وسفينة فى المرسى.

درس الغناء أيضا، ورغم أنه لم يزاول هذه المهنة فإنه غنى فى صالة بلايلى، وفى مسرح لامونيه ببروكسل. لفت إليه أنظار بوليس الآداب فى فرنسا، واعتبر غير مرغوب فيه. وكانت هناك نية لإبعاده.

فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ أثناء إقامته فى شارع نابولى رقم ٢٦ استجوبه البوليس لمحاولته اغتصاب قاصر.

من نوفمبر سنة ١٩٣٠ حتى سبتمبر ١٩٣١ أقام فى فندق شيكاغو بشارع روما رقم ٩٩ برفقة شاب يدعى بييرد، عشرين سنة. جندى فى الفرقة الثامنة بفرساى. يبدو أن سكوفى كان يغشى البارات المشبوهة بمونمارتر.

كانت له موارد وفيرة تأتيه من أملاكه التى ورثها عن أبيه فى مصر.
قتل فى مسكنه بشارع روما رقم ٩٧.
لم يكتشف قاتله أبدا.

الموضوع: أوليج دى فريديه.

تليفون ٧٢ – ٥٤ أوتيى.

حتى الآن تعذر التحقق من شخصية الشخص المدعو بهذا الاسم.

ربما يتعلق الأمر باسم مستعار، أو لأحد الرعايا الأجانب الذين أقاموا إقامة قصيرة فى فرنسا.

ورقم التليفون ٧٢ – ٥٤ لم يعد يخص أى أحد منذ وقت طويل طوال عشر سنوات من سنة ١٩٤٢ حتى سنة ١٩٥١ كان يخص جراج لاكوميت.

بشارع فوكو رقم ٥ بباريس «الحى السادس عشر».

وقد أغلق هذا الجراج أبوابه منذ سنة ١٩٥٢، وستقوم مقامه عمارة سكنية كبيرة.

بضع كلمات مرفقة بهذا التقرير المكتوب على الآلة الكاتبة:

«هذه هى المعلومات التى استطعت الحصول عليها ياصديقى العزيز. وإذا احتجت لمعلومات أخرى فلا تتردد فى الاتصال بى.

وأرجو إبلاغ تحياتى لهوت.

صديقك جان بيير برناردى.

ولكن لماذا يطفو ذلك الرجل البدين ذو وجه البولدوج فى ذاكرتى المظلمة بدلا من غيره، ربما بسبب الحلة البيضاء.. بقعة فاقعة، كما عندما ندير مفتاح المذياع، وبين الذبذبات وكل الأصوات المشوشة تصدح موسيقى أوركسترا أو ينبعث صوت رنان.

مازلت أتذكر البقعة البيضاء لتلك الحلة على السلم، والدقات الصماء المنتظمة للعصا ذات الرمانة فوق درجاته. كان يتوقف عند كل بسطة، وقد التقيت به مرارا، أثناء صعودى إلى شقة دنيز.

ومازلت أرى بكل وضوح الدرابزين النحاسى، والجدار الأسمر، وأبواب الشقق الخشبية الداكنة والمزدوجة، ونور سراج الليل فى السلم، وذلك الرأس والابتسامة الحلوة الحزينة للوجه الشبيه بوجه البولدوج وهو يبرز من جوف الظلام، بل إننى أظن أنه كان يحيينى عندما يلتقى بى.

مقهى فى ملتقى شارعى روما وباتينيول.. الوقت صيفا. شرفة المقهى تمتد حتى الرصيف، وأجلس إلى أحد المقاعد، الوقت مساء، وأنتظر دنيز، والأشعة الأخيرة للشمس تتباطأ على واجهة الجراج، وألواحه الزجاجية، هناك، فى الناحية الأخرى، من شارع روما بجوار السكة الحديدية.

وفجأة أراه وهو يعبر الشارع.

يلبس حلته البيضاء ويمسك فى يده اليمنى العصا ذات الرمانة وهو يعرج عرجا خفيفا، ويبتعد ناحية شارع كليش، ولا أفارق بعينى هذا الشبح الأبيض والمشدود، تحت الأشجار، وهو يصغر ويصغر ويختفى أخيرا.

وأشرب عندئذ جرعة من الماء الممزوج بالنعناع، وأتساءل عما يمكنه أن يبحث عنه هناك، وإلى أى موعد يذهب.

كانت دنيز تتأخر فى أغلب الأحيان، فقد كانت تشتغل، كل شىء يعود إلى الآن بفضل ذلك الشبح الأبيض الذى يبتعد فى آخر الشارع.. كانت تشتغل عند خياط بشارع لابويس، وهو رجل أشقر رهيف، كثر الحديث عنه فيما بعد، وكان عندئذ فى بداية حياته العملية. وإننى أتذكر اسمه الأول:

جاك. وإذا تجملت بالصبر فسوف أجد لقبه في ذلك الدليل القديم الذي على مكتب هوت.. شارع لابويس.

كان الليل قد هبط عندما انضمت إليَّ في شرفة ذلك المقهى.

ولكن ذلك لم يضايقني، فقد كان في مقدوري أن أبقى طويلا أمام قدح الماء بالنعناع، كنت أفضل الانتظار في تلك الشرفة عنه في شقة دنيز الصغيرة. في نحو الساعة التاسعة كان يعبر الشارع كعادته، وكان يخيل لي أن حلته فوسفورية، وتبادلا، هو ودنيز بضع كلمات ذات مساء، تحت الأشجار.. تلك الحلة ببياضها الناصع وذلك الوجه الأسمر الشبيه بوجه البولدوج، والأغصان الخضراء، كان في كل ذلك شيء صيفي وخيالي.

كنا نمشي أنا ودنيز في الطريق المقابل، وكنا نسلك شارع دي كورسيل.

وكانت باريس التي كنا نمشي فيها معا في ذلك الوقت صيفية وخيالية، هي الأخرى كحلة سكوفي الفوسفورية، كنا نطفو في ليل تعطره أشجار التمر حناء، عندما نمر أمام أسوار حديقة مونسو.. سيارات قليلة جدا، وأنوار حمراء وخضراء تضيء بهدوء للا شيء، والإشارات ذات الألوان المتعاقبة، كانت هي الأخرى لطيفة وعادية، كتمايل سعف النخيل.

في آخر شارع هوش تقريبا، على اليسار، قبل ميدان الأتوال كانت النوافذ الكبيرة للطابق الأول في القصر الخاص الذي كان يملكه سير بازيل زهاروف لا تزال مضاءة. وفيما بعد، أو في نفس الوقت تقريبا صعدت كثيرا إلى الطابق الأول بذلك القصر. مكاتب ودائما أشخاص كثيرون في تلك المكاتب. جماعات من الناس تتحدث، وجماعات أخرى تتكلم في التليفون في انفعال، ذهاب وإياب بدون انقطاع، وكل هؤلاء الناس يحتفظون بمعاطفهم، لماذا تظهر أشياء معينة من الماضي بمثل هذه الحدة والدقة الفوتوغرافية.

كنا نتناول الطعام في مطعم باسكي بشارع فيكتور هوجو، حاولت أمس أن أهتدي إليه، لكنني لم أفلح، ومع ذلك فقد بحثت عنه في الحي كله. كان ذلك المطعم يقع على ناصية شارعين هادئين جدا وكانت أمامه شرفة بها حوضان من الخضرة وتظللها ستارة كبيرة من القماش الأحمر. وتملؤها

جموع كثيرة من الناس. فأسمع ضجيجا ورنين الأقداح. وأرى البار في الداخل، وهو من خشب الأكاجو، وفوقه لوحة جدرانية كبيرة لمنظر من مناظر الشاطىء اللازوردي، وفي ذاكرتي أيضا بعض الوجوه.. الرجل الطويل الأشقر والرهيف الذي تشتغل دنيز عنده بشارع لابويس، والذي كان يأتي ويجلس إلى مائدتنا، وشاب أسمر وامرأة شقراء ورجل أحمر الشعر، ويضحك باستمرار، ولسوء الحظ لا أستطيع أن أتذكر أسماءهم، وعامل البار الأصلع الرأس الذي يعد كوكتيلا لا يعرف سره أحد غيره. يكفي أن أتذكر اسم الكوكتيل، وهو اسم المطعم بالذات، لكي تستيقظ ذكريات أخرى، لكن كيف؟ أمس مساء وأنا أجوب هذه الشوارع كنت أعرف أنها هي نفس الشوارع كسابق العهد بها ولكنني لم أعرفها. لم تتغير البيوت ولا عرض الأرصفة، ولكن كان النور في ذلك الوقت مختلفا، وشيء آخر كان يطفو في الهواء.

وكنا نعود من نفس الطريق، وفي أغلب الأحيان كنا نذهب إلى السينما، بإحدى صالات الحي وقد اهتديت إليها.. سينما رويال فيلبيه بميدان ليفي.. عرفت المكان بفضل الدكك وعمود موريس والأشجار أكثر مما عرفته من واجهة السينما.

لو أنني أتذكر الأفلام التي رأيناها فسوف أحدد الزمن بدقة. ولكن لم تبق من تلك الأفلام غير صور مهزوزة: زلاجة تنزلق فوق الجليد، مقصورة في باخرة يدخلها رجل بثياب السهرة، وأشخاص يرقصون خلف باب نافذة.

كنا نمضي إلى شارع روما، وقد سلكته أمي حتى البيت رقم ٩٧، وأعتقد أنني أحسست بنفس القلق الذي أحسست به في ذلك الوقت، وأنا أرى الأسوار والسكة الحديدية، وعلى الناحية المقابلة إعلان «دبيونية» الذي يغطي شقة جدار أحد البيوت، والذي بهتت ألوانه بالطبع منذ ذلك الحين.

لم يعد فندق شيكاغو الكائن برقم ٩٩ يعرف بنفس الاسم، ولم يستطع أحد في مكتب الاستعلامات أن يخبرني متى تغير اسمه، على كل ليس لهذا أهمية عليّ.

أما رقم ٩٧ فهو بيت عريض جدا، وإذا كان سكوفي قد أقام في الطابق الخامس فإن دنيز كانت تقطن تحته، أي في الطابق الرابع. ولكن في أية ناحية من البيت؟ اليمنى أم اليسرى؟ إن واجهة البيت بها اثنتا عشرة نافذة على الأقل في كل طابق، بحيث إن الطابق يتكون من شقتين أو ثلاث على الأكثر تأملت طويلا تلك الواجهة وكلي أمل أن أعرف شرفة أو شكل أو مصراعي نافذة. كلا لم تذكرني الواجهة بأي شيء.

وكذلك السلم، والدرابزين الذي يلمع بالنحاس كما يدور في مخيلتي، وأبواب الشقق فليست من الخشب الداكن، وخاصة نور السلم، فهو ليس نفس النور الذي كان ينعكس على وجه البولدوج الغامض لسكوفي. لا فائدة من استجواب البواب تأتي مصيبة الشك، ثم إن البوابين يتغيرون كما يتغير كل شيء.

أكانت دنيز لا تزال تقيم هنا عندما قتل سكوفي؟ إن مثل هذا الحادث المفجع لابد أن يكون له أثره، لو أننا عايشناه. ولكن لا أثر لذلك في ذاكرتي، لا ريب أن دنيز لم تبق مدة طويلة في البيت رقم ٩٧ بشارع روما. لعلها بقيت بضعة شهور فحسب، هل كنت أقطن معها؟ أو كان لي مسكن آخر في باريس؟

أذكر ليلة عدنا فيها متأخرين جدا. كان سكوفي جالسا فوق إحدى درجات السلم، كان عاقدا يديه على رمانة عصاه، ويعتمد بذقنه على يديه، وكانت ملامحه تدل على انهيار تام، ونظرة البولدوج تدل على ما يعانيه من يأس. وتوقفنا أمامه، ولكنه لم يرنا وددنا لو أن نكلمه وأن نساعده في الصعود إلى شقته، ولكنه بقي جامد الحركة كتمثال من الشمع، وانطفأ نور السلم، ولم يبق غير البقعة البيضاء الفوسفورية.

ولابد أن كل هذا حدث في البداية، عندما تعرفنا ببعض، أنا ودنيز.

— ٢٥ —

أدرت مفتاح النور، لكن بدلا من أن أغادر مكتب هوت، بقيت بضع لحظات في الظلام، ثم أضأت النور، وأطفأته ثانية. ثم أضأته من جديد ثم

أطفأته، أيقظ ذلك شيئا في ذهني. رأيت نفسي أطفىء النور في غرفة لها نفس المساحة، في وقت لا أستطيع تحديده. كنت أعيد هذه الحركة كل ليلة في نفس الوقت.'

كان ضوء مصباح شارع نيل يقع على مكتب هوت ومقعده. وفي الوقت الذي أتكلم عنه كنت أبقى بضع لحظات جامدا بعد أن أطفىء النور، وكأننى أتخوف من الخروج. كانت هناك مكتبة بألواح زجاجية لصق الحائط، ومدفأة من الرخام السنجابي اللون، فوقها مرآة، ومكتب بأدراج كثيرة، وأريكة بجوار النافذة حيث كنت أتمدد أحيانا لكى أقرأ، أما النافذة فتطل على شارع صامت تحوطه الأشجار بجانبيه.

كان قصرا صغيرا خاصا يتخذ مركزا لإحدى مفوضيات أمريكا الجنوبية، ولا أذكر بأية صفة كنت أحتل مكتبا في تلك المفوضية. وهناك رجل وامرأة يحتلان مكتبين آخرين بجوار مكتبى، كنت أسمعهما يضربان على الآلة الكاتبة.

كنت أستقبل أناسا كثيرين لكى أمنحهم التأشيرة، عادت هذه الذكرى إلى ذهنى فجأة وأنا أنقب فى صندوق البسكويت الذى أهدانيه. بستانى فالبروز. وكذلك وأنا أنظر إلى جواز السفر الصادر من جمهورية الدومينيك، والصور الفوتاماتون. ولكننى كنت أشتغل نيابة عن شخص فى تلك المفوضية.. قنصل؟.. قائم بالأعمال؟ لم أنس أننى كنت أتصل به هاتفيا كى أطلب منه بعض التعليمات. فمن كان؟!

وقبل كل شيء، أين هذه المفوضية؟ ذرعت الحى السادس عشر بالأشجار الذى كنت أراه فى مخيلتى يطابق أحد شوارع هذا الحى وقفت عند بداية كل شارع وأنا أمنى نفسى أن يسبب لى منظره كله، جيئة وذهابا، ومرارا، لأن الشارع الهادىء المحفوف الهزة التى أنتظرها، ظننت أننى أحسست بتلك الهزة فى ملتقى شارع مولينور بشارع ميرابو. وفجأة أيقنت كل اليقين أننى عند خروجى من المفوضية كل مساء كنت أجد نفسى فى تلك الناحية.

كان الوقت ليلا. سمعت وأنا أسلك البهو الذى يؤدى إلى الدرج صوت

الآلة الكاتبة. وأطللت برأسي من فتحة الباب. كان الرجل قد انصرف، وبقيت هي وحدها أمام آلتها الكاتبة. ألقيت إليها تحية المساء فتوقفت عن الضرب. والتفتت إليّ. امرأة جميلة سمراء، أتذكر وجهها الاستوائي، قالت لي شيئا بالإسبانية وابتسمت ثم عادت إلى عملها. وبعد أن بقيت لحظة في البهو استقر منى العزم فى النهاية وخرجت.

وأنا متأكد أننى أهبط شارع ميرابو الشديد السكون والهدوء والخالى من المارة بحيث أسرع الخطى مخافة أن يلحظنى أحد، حيث إننى العابر الوحيد وفى الميدان، على بعد قليل، فى ملتقى شارعى فرساى مقهى لا يزال يسطع بالأنوار.

وكان يحدث لى أيضا أن أسلك الطريق العكسى، وأن أتوغل فى شوارع أوتيى الهادئة، فيها كنت أحس بالأمان، وكنت أنطلق أخيرا إلى شارع لامويت، وأتذكر بيوتا عالية فى شارع أميل أوجيير، والشارع الذى كنت أتخذه إلى اليمين، وفى الطابق الأرضى نافذة بزجاج سميك معتم كما فى عيادات أطباء الأسنان، وكانت مضاءة باستمرار، وكانت دنيز تنتظرنى على مقربة، فى مطعم روسى.

وأنا أسترشد دائما ببارات أو مطاعم، ولكن إذا لم يكن هناك من وقت لآخر صفيحة معدنية لشارع أو لافتة مُضيئة فكيف أستطيع أن أهتدى؟

كان المطعم يمتد فى حديقة مسورة. وكنا نرى من كوة، القاعة الداخلية مكسوة بالقطيفة الحمراء. وكان الوقت لا يزال نهارا عندما نجلس إلى إحدى موائد الحديقة، وكان هناك عازف على القيثارة.. صوت تلك الأداة ونور الغروب فى الحديقة وشذا الأوراق الذى لا شك يأتى من الغابة التى على مقربة، ساهم كل ذلك فى غموض ومرارة ذلك الوقت. وقد حاولت عبثا الاهتداء إلى المطعم الروسى. أما شارع ميرابو فلم يتغير. وفى الأمسيات التى أتأخر فيها فى المفوضية، كنت أقطع طريقى من شارع فرساى. ورغم أنه فى مقدورى أن أستقل المترو، إلا أنى أوثر السير فى الهواء الطلق، ثم أعرج على رصيف باسى وكوبرى بير حكيم، وبعد ذلك شارع نيويورك الذى

سلكته فى اليوم الأسبق مع والدو بلانت، وأفهم الآن، لماذا شعرت بتلك الوخزة فى قلبى، فبدون أن أدرى كنت أمشى فوق خطواتى السابقة، كم مرة سلكت شارع نيويورك، وميدان ألما، الواحة الأولى، ثم أشجار وطراوة كورلارين، وبعد عبور ميدان الكونكورد سأبلغ الغابة تقريبا، شارع رويال، وأعرج إلى اليمين شارع سانت أونوريه، وعلى اليسار شارع كامبون.

ولا نور واحد فى شارع كامبون، اللهم إلا انعكاس ضارب إلى اللون البنفسجى، لعله صادر من فاترينة.. قدمى تدق على الأرض.. أنا وحدى.. ومن جديد يستولى علىّ الخوف، هذا الخوف الذى أشعر به كلما سلكت شارع ميرابو، الخوف أن يلحظنى أحد، ويلقى القبض علىّ ويسألنى عن بطاقتى الشخصية، سيكون ذلك أمراً يدعو إلى الأسف، وأنا على مسافة أمتار من الغابة، لا يجب أن أجرى على الخصوص يجب أن أمشى حتى النهاية بخطوات هادئة ثابتة.

فندق كاستيل، أجتاز الباب، لا أحد فى مكتب الاستعلامات، أدخل غرفة الاستقبال وأقضى بها لحظات ريثما أسترد أنفاسى وأجفف العرق الذى يتفصد من جبينى، هذه الليلة أيضا نجوت من الخطر، إنها تنتظرنى فوق، إنها الوحيدة التى تنتظرنى.. الوحيدة التى سوف يقلقها اختفائى من هذه المدينة.

حجرة لون جدرانها أخضر فاتح، الستائر الحمراء مسدلة، والنور ينبعث من مصباح بجوار الفراش، وأشم عطرها، وهو عطر ثمين، باهظ الثمن، ولا أرى بعد ذلك إلا بقع النمش على بشرتها والشامة التى فوق ردفها الأيمن.

كان عائداً من البلاج هو وابنه فى نحو الساعة السابعة مساء، وكانت هذه هى الساعة التى يفضلها فى اليوم، وكان يمسك الطفل من يده أو يتركه يجرى أمامه.

الشارع مقفر، وبضعة أشعة من الشمس تتباطأ على الرصيف وكانا يسيران تحت البواكى، وكان الطفل يتوقف كل مرة أمام محل حلوى «الملكة استريد»، أما هو فكان يتطلع إلى فاترينة المكتبة.

فى تلك الليلة لفت نظره كتاب فى الفاترينة يحتوى عنوانه المطبوع بالحروف الحمراء على كلمة «كاستيل»، وبينما كان يمشي وهو ممسك بيد ابنه، وبينما هذا الأخير يلهو ويثب فوق أشعة الشمس التي تخطط الرصيف، ذكرته تلك الكلمة بفندق بباريس في حي سانت أونوريه.

واعده ذات يوم رجل على اللقاء في فندق كاستيل، كان قد التقى به قبل ذلك في مكاتب شارع هوش، بين جميع الأشخاص الأجانب الذين يعقدون الصفقات في صوت خافت، وعرض عليه الرجل أن يبتيعه دبوساً وسوارين من الماس لأنه كان يريد مغادرة البلاد، وأعطاه المجوهرات ملفوفة في علبة جلدية صغيرة، واتفقنا على اللقاء في مساء اليوم التالي في فندق كاستيل، حيث يقيم ذلك الرجل.

رأى بعين الخيال مكتب الاستقبال بذلك الفندق، والبار الصغير بجواره والحديقة التي يعرض فيها اللبلاب، واتصل الموظف بالتليفون مع الرجل لكي يعلنه بقدومه ثم ذكر له رقم الغرفة.

كان الرجل مستلقياً فوق الفراش، وابتسم له في شيء من الخجل، لم يدر لماذا يشعر بالميل نحو هذا البدرو دون أن يعرفه، كان يشعر أنه طريد في تلك الغرفة من الفندق، وأعطاه الظرف الذي يحتوي على النقود على الفور.. أفلح بالأمس في بيع المجوهرات محققا ربحا كبيرا، وقال:

- إليك المبلغ. إنني أضفت إليه نصف الربح.

وشكره بدرو ووضع الظرف في درج بطاولة بجوار الفراش.

في تلك اللحظة لاحظ الرجل أن إحدى ضلفتي الدولاب الموضوع أمام الفراش كانت موارية، ورأى من خلالها ثيابا نسائية ومعطفاً من الفرو معلقة في العلاقات، وأدرك من ذلك أن المدعو بدرو يعيش مع امرأة، وفكر عندئذ أن وضع بدرو مع تلك المرأة مؤقت.

عاد بدرو فتمدد فوق الفراش، وأشعل سيجارة جديدة، كان ذلك الرجل

يشعر بالأمان لأنه قال:

ـ إنني قادر من وقت لآخر على الخروج إلى الشوارع.

ثم أردف قائلا:

ـ هناك أيام يتملكني فيها الخوف بحيث ألازم الفراش.

بعد كل هذا الوقت مازال يسمع العبارتين اللتين نطق بهما في صوت أصم، ولم يدر ساعتها بماذا يرد عليه.

فقال له: نحن نعيش في زمن عجيب.

وعندئذ قال له بدرو فجأة:

ـ أظن أنني وجدت طريقة لمغادرة فرنسا، كل شيء متاح بالنقود.

تذكر أن ندفات رقيقة جدا من الثلج، قطرات من المطر تقريبا، كانت تصطفق بألواح النوافذ الزجاجية، وذلك الثلج الذي يتساقط والليل في الخارج، وضيق الغرفة سبب كل ذلك له إحساساً بالاختناق، هل كان لايزال في الإمكان الهرب إلى مكان ما حتى بالنقود.

تمتم بدرو: نعم، لدي الوسيلة للذهاب إلى البرتغال، عن طريق سويسرا.

ذكرته كلمة البرتغال على الفور بالمحيط الأخضر وبالشمس وبمشروب برتقالي يتناولونه بأنبوبة من البوص تحت مظلة كبيرة، وقال لنفسه: «وإذا حدث والتقينا ذات يوم، أنا وهذا البدرو، في الصيف، في مقهى بلشبونة أو بالاستوريل؟.. سيأتيان بحركة فاترة لكي يضغطا على سدادة زجاجة ماء سلتز «ماء معدني فوار»، كم ستبدو لهما بعيدة جدا تلك الغرفة الصغيرة بفندق كاستيل، بثلجها، وظلامها، وبباريس في ذلك الشتاء الكئيب، والتجارة غير المشروعة التي كان لابد من ممارستها للخروج منها، وغادر الغرفة وهو يقول لبدرو «أتمنى لك التوفيق».

ماذا حدث لهذا البدرو؟ تمنى أن يكون ذلك الرجل الذي لم يلتق به، غير مرتين منذ وقت طويل، سعيدا وراضيا مثله هو في هذا الصيف ومعه طفل يثب فوق برك الشمس فوق الرصيف.

«عزيزى جاى، أشكرك لخطابك الذى أرسلته إلىّ، أنا سعيد جداً فى نيس، وجدت الكنيسة الروسية القديمة بشارع لونشان، حيث كانت جدتى تصطحبنى فى أكثر الأحيان، وكان ذلك وقت ميلى واهتمامى بالتنس وأنا أرى الملك جوستاف، ملك السويد يمارس هذه اللعبة، كل ركن فى نيس يذكرنى بطفولتى.

فى الكنيسة الروسية التى أحدثك عنها غرفة بها مكتبات بألواح زجاجية، وفى منتصفها منضدة كبيرة تشبه منضدة البلياردو، ومقاعد قديمة، كانت جدتى تأتى إليها كل يوم أربعاء كى تستعير بعض الكتب، وكنت أرافقها دائما.

يرجع تاريخ الكتب إلى القرن التاسع عشر، ثم إن المكان لايزال يحتفظ بسحر غرف المطالعة فى ذلك العصر، وأنا أقضى فيها ساعات طويلة أقرأ الروسية التى نسيتها بعض الشىء.

بمحاذاة الكنيسة حديقة مملوءة بالظلال، وبها نخيل وأشجار كافور، وبين هذه النباتات الاستوائية ترتفع شجرة سندر ذات جذع فضى لاشك أنها زرعت هناك لكى لاننسى وطننا البعيد، روسيا.

أأعترف لك ياعزيزى أننى رشحت نفسى لوظيفة أمين المكتبة. إذا مر كل شىء كما أرجو فسوف يسعدنى أن أستقبلك فى أحد أماكن طفولتى.

بعد كثير من التقلبات لم أجرؤ أن أقول للكاهن إننى مارست مهنة المخبر السرى، وها أنذا قد عدت إلى أصلى.

كنت على حق عندما قلت لى إن المستقبل لايهم، وأن المهم هو الماضى.

أما ما تسألنى إياه، فإننى أرى أن خير ماتفعل هو أن تلجأ إلى مكتب «فى خدمة العائلات»، ولهذا كتبت لدى سويرت، لأننى أرى أنه فى وضع يمكنه من الرد على أسئلتك، وسوف يرسل إليك المعلومات سريعاً جداً.

صديقك هوت..

حاشية: بخصوص المدعو أوليج فريديه الذى لم نتمكن من التحقق منه حتى الآن، أنهى إليك نبأ ساراً، ستتلقى خطابا بالبريد المقبل ستعرف منه كل ماتريد من معلومات، والواقع أننى سألت بالصدفة أعضاء الجالية الروسية فى نيس، إذ خطر لى أن اسم فريديه به رنة روسية أو بلطية، وحالفنى الحظ، فقد وقعت على سيدة تدعى مدام كافان أيقظ هذا الاسم لديها ذكريات.. ذكريات بغيضة تؤثر أن تمحوها من ذهنها على كل حال، ولكنها وعدتنى أن تكتب لك وتطلعك على كل ماتعرف.

- ٢٨ -

الموضوع: دنيز ايفينت كودروز.

ولدت في باريس في ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٧، من أب يدعى بول كودروز وأم تدعى هنريبيت بوجائيرت.

فرنسية الجنسية.

تزوجت في ٣ إبريل في مقر العمدية بالحي السابع عشر ببدرو ستيرن المولود في ٣ سبتمبر سنة ١٩١٢ بسالونيك «اليونان» يوناني الجنسية.

أقامت الآنسة كودروز بالتعاقب في:

رقم ٩ رصيف أوستيرليتز بباريس الحي الثالث عشر.

رقم ٢٧ شارع روما بباريس الحي السابع عشر.

فندق كاستيل بشارع كامبون بباريس الحي الثامن.

١٠ مكرر شارع كاميا سيريس بباريس الحي الثامن.

عملت الآنسة كودروز كنموذج للتصوير بمجلة أزياء باسم موت.

فيما بعد عملت كعارضة أزياء في محل الخياط ج. ف. بشارع لابويس رقم ٣٢، ثم اشتركت مع الخياط فان آلن الهولندي الجنسية الذي افتتح في إبريل سنة ١٩٤١ محلا للخياطة في رقم ٦ بميدان الأوبرا بباريس، الحي التاسع، ولكن المحل لم يلق رواجا وأغلق أبوابه في يناير سنة ١٩٤٥.

اختفت الآنسة كودروز أثناء محاولتها عبور الحدود بين فرنسا وسويسرا خلسة سنة ١٩٤٣، والتحقيق الذي أجري في ميجيف لم يسفر عن أية نتيجة.

الموضوع: بدرو جيمى ستيرن.

ولد فى سالونيك «اليونان» فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٢.

الجنسية: يونانى.

تزوج فى ٣ إبريل سنة ١٩٣٩ فى مقر عمدية الحى السابع عشر بدنيز إيفيت كودروز الفرنسية الجنسية.

لم يعرف لمسيو ستيرن مقر إقامة فى باريس.

هناك بطاقة وحيدة يرجع تاريخها إلى فبراير سنة ١٩٣٩ تشير إلى أن مسيو جيمى بدرو ستيرن أقام فى ذلك الوقت فى فندق لنكولن الكائن برقم ٢٤ شارع باريس بالحى الثامن، على كل حال فهذا هو العنوان المذكور فى مقر عمدية الحى السابع عشر فى عقد الزواج.

وفندق لنكولن لم يعد له وجود الآن.

وبطاقة فندق لنكولن كانت تحمل النص التالى:

الاسم: جيمى بدرو ستيرن.

العنوان: رقم ٢ شارع الحوانيت المعتمة، روما إيطاليا.

المهنة: سمسار.

ومسيو ستيرن اختفى فى سنة ١٩٤٠.

ـ ٣٠ ـ

الموضوع: بدرو ماك اينوى.

تعذر جدا الحصول على معلومات عن مسيو بدرو ماك اينوى، سواء فى إدارة البوليس أو فى مصلحة الاستعلامات العامة.

قيل لنا إن شخصا يدعى بدرو ماك أينوى، من مواليد جمهورية الدومينيك، ويشتغل فى مفوضية الدومينيك، كان يقيم فى ديسمبر سنة ١٩٤٠ برقم ٩ شارع جوليان بوتان «نويى ـ ألسين».

وقد ضاعت آثاره بعد ذلك.

وطبقا لكل الاحتمالات فإن مسيو بدرو ماك اينوى غادر فرنسا منذ الحرب.

ويحتمل أيضا أن يتعلق الأمر بشخص استخدم اسما مستعاراً وبطاقة هوية مزيفة، كما كان مألوفاً فى ذلك الوقت.

ـ ٣١ ـ

كان ذلك فى عيد ميلاد دنيز، مساء يوم شتوى، وكان الثلج الذى يتساقط على باريس يتحول إلى وحل، والناس يهرعون إلى مداخل المترو، ويسرعون الخطى، وفاترينات ضاحية سانت أونوريه تتلألأ بالأنوار، كان عيد الميلاد على الأبواب.

دخلت محل جواهرجى، ومازلت أتذكر ذلك الرجل، كانت له لحية، ويلبس نظارة زجاجها ملون، اشتريت خاتما لدنيز، وعندما غادرت المحل كان الثلج لايزال يتساقط.. وخشيت ألا تأتى دنيز فى الموعد، ولأول مرة خطر لى أننا قد نتوه فى هذه المدينة، بين كل هذه الظلال التى تسرع الخطى.

ولم أعد أذكر فى ذلك اليوم إن كنت أدعى جيمى أو بدرو أو ستيرن أو ماك اينوى.

ـ ٣٢ ـ

فالباريزو.. وقفت فى آخر الترام، بجوار الزجاج، محشورة بين جموع

الركاب، بين رجل بنظارة سوداء وامرأة سمراء، لها رأس كرأس المومياء، تفوح منها رائحة البنفسج.

سوف يهبطون جميعا، تقريبا، في محطة أوشارين، وستستطيع أن تجلس عندئذ، إنها لاتأتي إلى فالباريزو إلا مرتين كل أسبوع، للتسوق، لأنها تقيم فوق التل، في حي سيرو أليجر، فقد استأجرت هناك بيتا، وعكفت فيه على تدريس الرقص.

لاتشعر بأى أسى أو ندم لأنها غادرت باريس منذ خمس سنوات بعد الكسر الذى أصيبت به في عرقوبها، عندما عرفت أنها لن تستطيع أن ترقص بعد ذلك، قررت أن تقطع صلاتها بكل شيء، وأن تطرح عنها كل ما له علاقة بحياتها السابقة.. ولكن لماذا فالباريزو؟.. لأنها كانت تعرف فيها صديقا.. راقصا قديما بفرقة كيوفا للباليه.

إنها لاتنوى العودة إلى أوروبا.. ستبقى هناك، فوق التل، تعطى دروسها، وسينتهى بها الأمر أن تنسى صورها القديمة فوق الجدران، في الوقت الذى كانت تنتمى فيه إلى فرقة الكولونيل دى بازيل.

يندر أن تفكر في حياتها قبل الحادث، فكل شيء يتعقد ويتخبط في رأسها، إنها تخلط الأسماء والتواريخ والأماكن، ومع ذلك فإن ذكرى واحدة تعود إليها بصورة منتظمة، مرتين في الأسبوع، في الساعة نفسها، وفي المكان نفسه، تعود إليها أكثر وضوحاً من باقي الذكريات.

تعود إليها في اللحظة نفسها، التي يتوقف فيها الترام، في أسفل شارع ايرازوريس، ذلك الشارع الذى تظلله الأشجار، والذى يصعد في انحدار خفيف يذكرها بشارع جوانجوزاس الذى كانت تسكنه وهى طفلة، إنها ترى البيت، في آخر شارع كورزين، والصفصافة، والسور الأبيض، والمعبد البروتستانتى في الناحية المقابلة، وفي الأسفل، حانة روبن هود.. إنها تتذكر يوم أحد مختلفاً عن باقى الأيام.. جاءتها اشبينتها لاصطحابها.

إنها لاتعرف شيئاً عن تلك المرأة فيما عدا أن اسمها دنيز.. كانت تأتيها

فى سيارة مكشوفة، وفى ذلك الأحد كان برفقتها رجل أسمر وذهبوا ثلاثتهم وتناولوا جيلاتى، وركبوا زورقا وتنزهوا فى البحر، وفى المساء أثناء مغادرتهم فرساى لإعادتها إلى جوانجوزاس، توقفوا فى حفل شعبى، وركبت هى وأشبينتها دنيز سيارة تصادمية فى حين وقف الرجل ينظر إليهما.

وددت لو تعرف الكثير عنهما.. اسم كل منهما، وأين يقيمان، وماذا جرى لهما منذ ذلك الوقت، تلك هى الأسئلة الحائرة التى تلقيها على نفسها بينما ينطلق الترام يجتاز شارع ايرازوريس فى طريقه إلى حى سيرو أليجر.

ـ ٣٣ ـ

فى ذلك المساء، كنت جالسا إلى إحدى الموائد ببار عرفنى هوت به، يقع فى شارع نييل، أمام المكتب، بار متعدد المزايا، فإلى جانب الخمور يبيع أصناف البقالة والخردوات، ويقدم الطعام لزبائنه، وفوق الرفوف، خلف البار، منتجات مستوردة: أنواع من الحلوى والمربى والزهور والرنجة وغيرها، يرتاد هذا البار الجوكية ورجال الخيل، حيث يتبادلون ذكرياتهم، ويعرض كل منهم صوره على الآخرين، وهى صور التقطت لهم وهم منطلقون فوق صهوات جيادهم فى مضمار السباق.

هناك رجلان أمام البار، يتكلمان فى صوت خافت أحدهما يلبس معطفاً بلون الأوراق الميتة، يصل حتى عرقوبيه، إنه قصير القامة، كأغلب الزبائن، التفت كى يرى الوقت على ميناء الساعة التى فوق باب الدخول، فوقعت عيناه علىّ.

امتقع وجهه جداً، وحدق فىّ فاغر الفم، جاحظ العينين، واقترب منى فى بطء وهو مقطب الحاجبين، وتوقف أمام مائدتى وقال:

ـ بدرو!

تحسس قماش سترتى، عند مرفقى، وعاد يقول:

ـ بدرو.. أهذا أنت؟.

ترددت فى الرد عليه، وبدا عليه الاضطراب وتمتم:

ـ معذرة.. ألست أنت بدرو ماك إيفوى؟.

قلت له فجأة: نعم.. لماذا؟.

ـ بدرو.. ألا تعرفنى؟.

ـ كلا.

جلس أمامى وقال: بدرو.. أنا أندريه ويلدمير.

كان قلقا.. أمسك يدى وقال:

ـ أندريه ويلدمير، الجوكى.. ألا تتذكر؟.

قلت: معذرة.. فى ذاكرتى فجوات.. متى تعارفنا؟.

ـ ولكنك تعرف تماما.. مع فريدى.

أصابنى هذا الاسم بهزة كهربية.. جوكى.. حدثنى بستانى فالبروز العجوز عن جوكى.. وقلت:

ـ هذا عجيب، حدثنى بعضهم عنك.. فى فالبروز.

غامت عيناه.. أتأثير الخمر؟.. أم الانفعال.

ـ ولكن تنذكر يابدرو.. ألا تذكر عندما كنا نذهب إلى فالبروز مع فريدى؟.

ـ ليس جيدا.. أن بستانى فالبروز هو الذى حدثنى عن ذلك بالذات.

ـ بدرو.. ولكن.. أنت على قيد الحياة إذن؟.

وشد على يدى بكل قوة، لدرجة أنه آلمنى.

ـ نعم. لماذا؟.

ـ وأنت؟.. أنت فى باريس؟.

ـ نعم. لماذا؟.

نظر إلىّ مذعوراً. شق عليه أن يصدق أننى على قيد الحياة. فما الذى حدث إذن؟ وددت أن أعرف ذلك، لكن الظاهر أنه كان لايجرؤ على التحدث فى هذه المسألة مواجهة.. وقال:

ـ إننى.. إننى أقيم فى جيفرنى.. بالواز.. وأجىء إلى باريس فيما يندر.

ـ أتريد أن تشرب شيئاً يابدرو؟.

قلت: كأساً من المارى بريزار.

ـ حسنا، وأنا أيضا..

صب الشراب فى كأسينا، فى بطء.. مما أعطانى إحساساً أنه يريد أن يكسب بعض الوقت.

ـ بدرو.. ماذا حدث؟.

ـ متى؟.

جرع كأسه مرة واحدة، عندما حاولت عبور الحدود مع دنيز.

بماذا كنت أستطيع الرد؟.

ـ أنت لم تبلغنا بأخبارك أبدا.. وقد قلق فريدى كثيرا.

وملأ كأسه مرة ثانية: أعتقد أنكما ضللتما الطريق فى ذلك الجليد.

قلت: لم يكن ينبغى أن تقلقوا.

ـ ودنيز؟.

هززت كتفى وسألته: هل تتذكر دنيز.

ـ طبعا يابدرو.. وكيف لانتذكر!.

قلت: معذرة أيها الصديق. لست فى حالة جيدة منذ بعض الوقت. إننى أحاول أن أتذكر ذلك الوقت، ولكن كل شيء يختلط على.

ـ إننى أفهم، فكل هذا بعيد، هل تتذكر زواج فريدى؟.

وابتسم.

ـ ليس تماما.

ـ فى نيس، عندما تزوج بجاى.

ـ جاى أورلو؟.

ـ طبعا.. جاى أورلو.. وبمن غيرها يتزوج؟.

لم يكن مسروراً أبداً وهو يرى أن هذه الزيجة لا تذكرنى بالكثير.

ـ فى نيس.. فى الكنيسة الروسية.. زواج دينى.. بدون زواج مدنى.

ـ أي كنيسة روسية؟.

ـ كنيسة روسية بها حديقة.

أتكون تلك التي وصفها لي هوت في خطابه؟.. هناك أحياناً مصادفات غامضة.

قلت: طبعاً، طبعاً، الكنيسة الصغيرة الروسية بشارع لونشان بها حديقة، ومكتبة دينية.

ـ أنت تتذكر إذن، كنا أربعة شهود، وكنا نمسك بالأكاليل فوق رأسي فريدي وجاي.

ـ أربعة شهود؟.

ـ بالطبع، أنت وأنا وجد جاي.

ـ العجوز جيورجيادزيه.

ـ هو ذلك.. العجوز جيورجيادزيه.

إذن فقد التقطت الصورة التي أظهر فيها مع جاي أورلو وجيورجيادزيه في تلك المناسبة، سوف أريها له.

ـ وكان الشاهد الرابع صديقك روبيروزا.

ـ من؟.

ـ صديقك روبيروزا.. بور فيريو، الدبلوماسي الدومينيكي.

وابتسم وهو يتذكر ذلك البورفيريو روبيروزا.. سياسي دومينيكي.. لعلني كنت أشتغل معه في تلك المفوضية.

وبعين الخيال، رأيتنا نمشي، ظهرا في شارع من شوارع نيس، تحفه أشجار الدلب، والشمس ساطعة.

ـ أكانت دنيز معنا؟.

هز كتفيه وقال: طبعا، أنت لاتذكر شيئاً بالتأكيد.

كنا نمشي، غير مبالين، نحن السبعة، أنا ودنيز والجوكي وجاي أورلو وفريدي وروبيروزا والعجوز جيورجيادزيه، كنا نرتدي حللاً بيضاء.

ـ كان جيورجيادزيه يقيم بجوار حديقة الزاس لورين.

كانت أشجار النخيل ترتفع حتى السماء، وجاء الأطفال يتزحلقون بقباقيبهم، وتبدو واجهة البيت الأبيض، بستائرها من القماش الوردى، وتعلو ضحكاتنا ونحن نصعد درجات السلم.

ـ وفى المساء دعانا صديقك روبيروزا للعشاء فى ايدن روك احتفالاً بذلك الزواج، هل تتذكر ذلك؟.. هل تتذكر؟.

ـ وراح ينفخ كما لو كان قد بذل جهدا كبيرا.. يبدو كما لو أضنته ذكرى ذلك اليوم الذى تزوج فيه فريدى بجاى أورلو، ذلك اليوم المشمس الهادىء الذى كان دون شك إحدى لحظات استمتاعنا بشبابنا.

قلت له: خلاصة القول، إننا نعرف بعضنا البعض، أنا وأنت منذ وقت طويل؟.

ـ نعم، ولكننى عرفت فريدى أولا، لأننى كنت الجوكى الخاص بجده، ولكن لم يدم ذلك طويلا لسوء الحظ، فقد خسر العجوز كل شىء.

ـ وجاى أورلو.. هل تعرف أنها....

ـ نعم، أعرف، كنت أقيم على مقربة منها، بميدان أليسكان.

البيت الكبير، والنوافذ التى لاشك كانت جاى أورلو تطل منها على منظر جميل جدا بميدان السباق بأوتيى، وقد قال والدوبلانت زوجها الأول إنها انتحرت لأنها كانت تخشى الشيخوخة، وأعتقد أنها كثيرا ما كانت تشاهد السباق من نافذتها، وأنها كانت ترى مرات عديدة فى أصيل يوم واحد أكثر من عشرة جياد تندفع وتنطلق فى الميدان وتاتى لكى تصطدم بالعوائق وتتحطم، ثم إن الجياد التى تفلح فى اجتياز تلك العوائق تراها بعد ذلك ببضعة شهور أخرى ثم تختفى بدورها، لابد من جياد جديدة باستمرار، ولابد من استبدالها أولا بأول، وفى كل مرة الوثبة نفسها، والاصطدام والتحطيم نفسه.

مثل ذلك المنظر لا يمكن إلا أن يحدث تأثيرا محزنا ومثبطا، ولابد أن

جاى أورلو، كانت تقيم هناك .. وددت أن أسأل ويلدمير عن رأيه، فلا ريب أنه يفهم ، فهو جوكى

وخاطبنى قائلا إنه لأمر محزن جدا .. كانت فتاة ظريفة . وانحنى. وأدنى وجهه من وجهى . كانت له بشرة حمراء مجدورة وعينان كستنائيتان ، وفى وجهه ندبة تبدأ من أعلى خده الأيمن حتى أسفل ذقنه. وكان شعره أصحر ، فيما عدا خصلة بيضاء معقودة فى دائرة فوق جبينه

– وأنت يابدرو ؟

ولكننى لم أدعه يتم عبارته، وقلت صدفة، تذكرت فجأة العنوان المذكور فى بطاقة بدرو ماك ايفوى

– هل عرفتنى عندما كنت أقيم بشارع جوليان بوتان بنويى ؟

– عندما كنت تقيم فى مسكن روبيروزا ؟ .. طبعا

هذا الروبيروزا من جديد

وانفجر ضاحكا

– كان صديقك روبيروزا يأتى برجال الأوركستر .. حتى الساعة السابعة صباحا ، كان يعزف على الجيتار . هل تتذكر ذلك ؟

– إنك زودتنى بجواز سفر دومينيكى .. لم يفدنى كثيرا

سألته هل أتيتنى فى المفوضية ؟

– نعم . عندما أعطيتنى الجواز الدومينيكى .

– لم أفهم أبدا ماذا كنت أفعل فى تلك المفوضية

– لا أدرى . ولكنك قلت لى ذات يوم إنك تشتغل سكرتيرا لروبيروزا وإنها وظيفة تتستر وراءها .. وقد حزنت جدا لموت روبيروزا فى حادثة تلك السيارة .

نعم . إنه أمر محزن حقا ، فهذا شاهد لن أستطيع استجوابه

– قل لى يا بدرو .. ماهو اسمك الحقيقى ؟ .. لقد حيرنى هذا الأمر دائما . كان فريدى يقول إن بدرو ماك ايفوى ليس اسمك . وإنه هو الذى

زودك بأوراق شخصية مزورة .

– اسمي الحقيقي ؟ .. وددت حقا أن أعرفه

وابتسمت لكي يحمل روى هذا على أنه مزحة

– كان فريدى يعرفه . فقد كنتما معا في الكلية . شد ما أزعجتنى بمغامراتك في كلية لويزا

– كلية ؟

– كلية لويزا . تعرف ذلك جيدا فلا تتظاهر بالغباء . في اليوم الذى أقبل أبوك لاصطحابكما معا في سيارته ، ترك القيادة لفريدى مع أنه لم يكن قد حصل على رخصة قيادة بعد . لقد رويت لي هذه القصة مائة مرة على الأقل.

وهز رأسه . كان لى أب إذن ، وكان يأتي ليصطحبنى من كلية لويزا معلومة مهمة . سألته

– وأنت ؟ .. هل مازلت تهتم بالجياد ؟

– التحقت بوظيفة مدرس فروسية في إحدى المدارس بجيفرني .

اكتسى صوته برنة خطيرة أثارتني

– أنت تعرف جيدا انني انهرت تماما عندما وقعت لي تلك الحادثة .

أية حادثة . لم أجرؤ على سؤاله

– عندما رافقتكم إلى ميجيف ، أنت ودنيز وفريدى وجاى ، لم يكن الأمر على مايرام أبدا . كنت فقدت وظيفتي كمدرب ... تملكهم الخوف لأننى إنجليزى ، وكانوا يريدون فرنسيا

إنجليزى ؟ نعم ، كان يتكلم بلكنة خفيفة لم أكن قد فطنت إليها حتى الآن. واشتدت دقات قلبي عندما نطق بكلمة ميجيف .

جازفت وقلت غريبة فكرة الرحيل إلى ميجيف هذه

– ولم الاستغراب ؟ لم يكن يسعنا أن نفعل غير ذلك .

– هل تعتقد ؟

– كان مكانا آمنا . كانت باريس قد أصبحت شديدة الخطر .

– هل تعتقد حقاً ؟

– ولكن تذكر يابدرو .. كان هناك تفتيش مستمر . وأنا كنت إنجليزيا وكان مع فريدى جواز سفر إنجليزى .

– إنجليزى ؟

– طبعا . فإن أسرة فريدى كانت من مواليد جزيرة موريس ، وأنت لم يكن وضعك أكثر تألقا .. وجوازاتنا الدومينيكية المزعومة لم تكن تستطيع حمايتنا حقا . تذكر .. أن صديقك روبيروزا نفسه .

لم أسمع بقية عبارته ، وأظن أن صوته قد خمد

رشف جرعة من كأسه . وفى هذه اللحظة دخل أربعة رجال . زبائن عاديون . جوكية سابقون . كنت أعرفهم وسمعت الكثير من أحاديثهم . يلبس أحدهم بنطلونا خاصا بركوب الخيل وسترة من جلد الغزال ، مبقعة فى أماكن كثيرة ، ربتوا على كتف ويلدمير ، وكانوا يتكلمون فى نفس الوقت، ويضجون بالضحك . مما تسبب ذلك فى صخب كبير ، ولم يقدمهم ويلدمير لى .

جلسوا على المقاعد العالية أمام البار ، وراحوا يتكلمون فى صوت مرتفع جدا

– بدرو .

انحنى ويلدمير فوقي ، كان وجهه على بعد سنتيمترات من وجهى . بدا مكشرا كما لو كان يبذل مجهودا جبارا لكي ينطق ببضع كلمات

– بدرو .. ماذا حدث مع دنيز عندما حاولتما عبور الحدود؟

– قلت لا أدرى .

نظر إليّ فى حدة ، ولا ريب أنه كانَ قد سكر بعض الشيء .

– بدرو .. أخبرتك قبل الرحيل أن تحترس من ذلك الرجل .

– أى رجل ؟

– الرجل الذى أراد أن يذهب بك إلى سويسرا .. الروسى الذى كان يبدو عليه أنه يعيش على نفقة النساء .

واحمر لونه . وشرب جرعة أخرى من الشراب .

– تذكر . قلت لك أيضا أنه لا يجب أن تأمن للآخر .. رجل التزحلق .

– أى رجل ؟

– ذلك الذى كان يحب أن يذهب بك عبر الحدود . أنت تعرف جيدا ذلك المدعو بوب وشيئا آخر .. بوب بيسون .. لماذا رحلتما ؟ كنتما على مايرام معنا

ماذا أقول له ؟ هززت رأسى فى حين أفرغ هو كأسه مرة واحدة .

وقلت هل كان يدعى بوب بيسون ؟

– نعم . بوب بيسون .

– والروسى ؟

قطب حاجبيه وقال لا أدرى .

وفتر اهتمامه بى . كان قد بذل مجهودا جبارا لكى يتكلم عن الماضى . ولكن انتهى الأمر ، وكذلك السباح الذى يرفع رأسه فوق الماء لآخر مرة ثم لا يبدى مقاومة ويستسلم للغرق ببطء . ومهما يكن فأنا لم أساعده كثيرا فى هذا الموضوع .

نهض وانضم للآخرين . واستعاد عاداته . وسمعته يبدى بصوت مرتفع برأيه فى السباق الذى جرى بعد الظهر فى فنسين ، وقدم الرجل الذى يرتدى البنطلون الخاص بركوب الخيل الشراب للجميع ، واستعاد ويلدمير صوته . وكان محتدما ومتحمسا بحيث نسى أن يشعل سيجارته التى تتدلى بين شفتيه، ولو أننى وقفت أمامه لما عرفنى .

وفيما أنا خارج قلت له «إلى الملتقى» وأشرت إليه بذراعى ، ولكنه تجاهلنى . لم يكن مهتما إلا بالموضوع الذى يشغله.

فيشي . سيارة أمريكي تقف بجوار نافورة سورس ، على مقربة من فندق السلام . والسيارة ملوثة بالوحل . يهبط منها رجلان وامرأة ، ويتقدمان نحو الفندق . ولحية كل من الرجلين نامية منذ بضعة أيام ، وأحدهما طويل القامة، ويساند المرأة بذراعه، وأمام الفندق صف من المقاعد الخيزران ، يرقد عليها أناس رءوسهم مائلة دون أن تزعجهم ، كما تبدو شمس يوليه الحارقة .

ويجد الثلاثة ، في البهو، مشقة كبيرة في شق طريقهم حتى مكتب الاستعلامات ، فلابد لهم من تجنب مقاعد وأسرة ميدان يرقد عليها أناس آخرون ، بعضهم في زيهم الحربي ، وجماعات أخرى متلاحمة، من خمسة أو ستة أشخاص ، يتدافعون في آخر البهو ويتشاتمون ، وضجة أحاديثهم تضايقك أكثر من حرارة الخارج المشبعة بالرطوبة . وصلوا أخيرا إلى مكتب الاستعلامات . وناول أحد الرجلين جوازات السفر ، جوازين صادرين من جمهورية الدومينيك بباريس ، أحدهما باسم بورفيريو روبيروزا والآخر باسم بدرو ماك ايفوى ، أما الثالث ففرنسي باسم دنيز ايفيت كودروز

والموظف ، ويتقصد وجهه بالعرق الذي يقطر من أسفل ذقنه ، يعيد إليهم الجوازات الثلاثة بحركة متعبة . كلا . لا توجد ولا غرفة واحدة خالية في كُل فيشي ، نظرا للظروف، وإذا اقتضى الأمر فهناك مقعدان يمكن وضعهما في غرفة الغسيل أو في دورة المياه بالطابق الأرضي . كانت تغطي على صوته ضوضاء الأحاديث التي ترتفع حوله واصطفاق باب المصعد المعدني وصليل جرس التليفون والنداءات المتتابعة الصادرة من مكبر الصوت المثبت فوق مكتب الاستعلامات .

خرج الرجلان والمرأة من الفندق وهم يترنحون . وغامت السماء فجأة، وامتلأت بسحب رمادية تميل إلى اللون البنفسجي واجتازوا حديقة سورس . كانت هناك جماعات متلاحمة ، أكثر من تلك التي في بهو الفندق . تسد الأراضي الخضراء والممرات المسقوفة يتحدث الجميع فيما بينهم في صوت

مرتفع جداً . وينتقل بعضهم من جماعة لأخرى ، والبعض الآخر ، كل اثنين أو ثلاثة ، يجلسون فوق دكة خشبية أو على مقعد حديدى من مقاعد الحديقة، قبل أن ينضموا الى الآخرين . ويخيل لمن يراهم كأنهم فى ساحة كبيرة لإحدى المدارس، وأنهم ينتظرون فى فروغ صبر رنين الجرس الذى يضع حدا لهذا الهيجان وهذا الطنين الذى يزداد من دقيقة لأخرى ويسبب الدوخة.

الأسمر الطويل القامة لا يزال يساند المرأة بذراعه فى حين خلع الآخر سترته . يمشون ويدفعهم بالمناكب أناس يسيرون في كل ناحية ، بحثا عن أحد أو عن جماعة غادروها منذ لحظة ثم تفككت بعد ذلك .

يصل الثلاثة أمام مقهى الرستوراسيون .الشرفة مكتظة ، ولكن لحسن حظهم غادر خمسة أشخاص للتو إحدى الموائد، فيتهالك الرجلان والمرأة على المقاعد الخيزران وينظرون في شيء من الذهول ناحية الكازينو .

بخار ينتشر فوق الحديقة، ولكن الأغصان تحجزه وتحوله الى ضباب، ضباب يملأ الحلق ، ويغطي الجماعات التي تقف أمام الكازينو ويجعلها تبدو مهتزة ، ويكتم صوت نقاشهم المحتدم ، وعلى مائدة مجاورة امرأة تنفجر بالبكاء وتكرر الحدود مغلقة فى هنداى

تدلى رأس المرأة فوق كتف الرجل الطويل وأطبقت عينيها ، ونامت نوم طفل . ويتبادل الرجلان ابتسامة ثم ينظران من جديد الى كل تلك الجماعات، أمام الكازينو .

وفجأة ينهمر سيل من المطر .. مطر موسمي يخترق أوراق أشجار الدنب السميكة وأشجار الكستناء . ويتدافع الناس ويتضابرون بالمناكب للاحتماء تحت سقيفات الكازينو الزجاجية فى حين يسرع البعض بمغادرة الشرفة الى داخل المقهى وهم يدوسون على بعضهم البعض .

بيد أن الرجلين والمرأة لم يتحركوا؛ لأن مظلة مائدتهم وقتهم من المطر . والمرأة لا تزال نائمة ، وخدها على كتف الرجل الاسمر الطويل القامة الذى راح ينظر أمامه بعينين ساهمتين ، فى حين راح زميله يترنم بأحد الألحان فى شرود

ترى من النافذة الأرض الخضراء . يحدها ممر من الحصى ، يصعد فى انحدار خفيف جدا حتى المبنى الذى أتواجد فيه ، والذى يحملنى على التفكير فى أحد القصور البيضاء التى تقع على ضفاف البحر الأبيض المتوسط . لكن عندما ارتقيت درجات المدخل وقعت عيناى على هذه الكلمات المنقوشة بالفضة والتى تزين الباب الخارجى للمبنى .

كلية لويزا والبانى .

وهناك فى آخر الأرض الخضراء ، ملعب للتنس ، وعلى اليمين صف من أشجار السندر وحوض مفرغ من الماء ، وأمام المغطس ، وقد انهار نصفه.

انضم الرجل إلىّ بجوار النافذة وقال

– آه .. نعم، . إننى آسف أيها السيد ، فقد احترقت كل مستندات الكلية بدون استثناء .

رجل فى الستين من عمره ، يلبس نظارة بإطار من الصدف الفاتح اللون وسترة من التويد

– ومهما يكن فإن مدام جينشميد ماكانت لتسمح بذلك، إنها لا تريد أن تسمع شيئا يتعلق بكلية لويزا بعد موت زوجها

– ألا توجد صور قديمة للفصول فى مكان ما ؟

– كلا أيها السيد . أقول لك إن كل شىء قد احترق .

– هل قضيت هنا مدة طويلة ؟

– السنتان الأخيرتان من الكلية . ثم مات المدير ، مسيو جينشميد ولم تعد الكلية كما كانت .

وراح ينظر من النافذة وهو مستغرق فى التفكير . وقلت

– بصفتى تلميذا قديما كنت أود أن أجد بعض التذكارات .

– إننى فاهم . ولكن لسوء الحظ ..

– وماذا سيحدث للكلية ؟

– أوه . سيباع كل شيء بالمزاد
وأشار بيده إشارة جمعت بين الأرض الخضراء وملعب التنس والحوض الذي أمامنا
– هل تريد أن ترى عنابر النوم والفصول مرة أخيرة ؟
– لا داعي لذلك .
أخرج غليونه من جيب سترته ووضعه بين شفتيه . ولم يبتعد عن مكانه أمام النافذة . وسألته
– ماهذا المبنى الذى على اليسار ؟
– غرف الثياب أيها السيد . كان الطلبة يستبدلون ثيابهم فيها لممارسة الرياضة
– آه ، نعم
وحشى غليونه .
– نسيت كل شيء ، هل كنا نلبس زيا خاصاً ؟
– كلا أيها السيد . كان البليزر الكحلي إجباريا أثناء العشاء وفى أيام الخروج فحسب .
اقتربت من النافذة ، وألصقت جبيني بالزجاج تقريبا . كانت هناك أمام المبنى الأبيض مساحة يغطيها الحصى ، تخللها العشب الشيطاني . رأيتني أنا وفريدى ، وكل منا يرتدى البليزر الكحلي ، وحاولت أن أتصور شكل ذلك الرجل الذى أتى لاصطحابنا ، في يوم من أيام الإجازة ، وهبط من سيارته وأقبل نحونا .. ذلك الرجل الذى كان أبى

– ٣٦ –

مدام ١ . كاهان .
نيس فى ٢٢ من نوفمبر سنة ١٩٦٥
٢٥ شارع بيكاردى
نيس

أكتب لك بناء على طلب مسيو م . هوت لكى أنهى إليك ما أعرفه عن أوليج دى فريديه ، رغم أنه يشق علىّ أن أتذكر هذه الذكرى البغيضة .

دخلت ذات يوم مطعما روسيا بشارع فرانسوا الأول اسمه «مطعم اركادى» ، يشرف عليه رجل روسى لا أذكر اسمه . مطعم متواضع لم يكن يؤمه أناس كثيرون . والمدير ، هو رجل تعس ، مريض ، شاخ قبل الأوان ، كان يقف أمام مائدة الزاكوسكى ، وهى مشهيات روسية تسبق الطعام، حدث هذا بعد عام ١٩٣٧ بقليل

لاحظت شابا فى العشرين من عمره، يتصرف فى ذلك المطعم كأنه فى بيته ، حسن المظهر ، أنيق الملبس جدا، أثار دهشتى مظهره الخارجى كل الدهشة . حياة زاخرة ، عينان زرقاوان مغوليتان. وابتسامة متألقة . وضحكة مستمرة ، ولكن خلف كل هذا رياء وخبث حيوانى .

كان يجاور مائدتى فى المرة الثانية التى ذهبت فيها إلى ذلك المطعم ، وقال لى مشيرا إلى المدير

– أتظنين ابنا لهذا السيد ؟

وتكلم عن الرجل المسكين بلهجة تقطر بالاحتقار ، وكان الرجل أباه حقا ثم عرض على سوارا محفورا عليه اسم لويس دى فريديه كونت مونبا نسييه، وكانوا يدعونه فى المطعم باسم «أوليج» وهو اسم روسى . وسألته عن أمه فأجابنى أنها ماتت ، وسألته أين استطاعت أن تلتقى بأحد أفراد عائلة مونبانسييه ، وهى الفرع الثانى لآل أورليان كما يبدو فأجاب فى سيبيريا لم يكن كل هذا معقولا ، عندئذ أدركت أنه خليع يعيش على نفقة الجنسين . وعندما سألته عما يفعل قال لى إنه يعزف على البيان

ثم بدأ يعدد لى كل علاقاته الاجتماعية ، فقال إن الدوقة دى أوزيس تجله وتحترمه ، وأنه على صلات ودية مع دوق وندسور ، وأحسست أن كل كلامه يتسم بالكذب والصدق معا ، فإن رجال المجتمع ينخدعون باسمه وبابتسامته وبظرفه البارد والحقيقى فى نفس الوقت

وأثناء الحرب، وأظن أن ذلك كان فى سنة ١٩٤١ أو ١٩٤٢ كنت بشاطىء جيان ليبان عندما رأيت هذا التوليج دى فريديه يسرع إلىّ وهو فى أحسن حالاته ، كالعهد به دائما ويقهقه . قال إنه كان مسجونا وأن ضابطاً ألمانيا يهتم به ، وأنه يقضى فى الوقت الحاضر بضعة أيام عند أشبينته فى الحرب، أرملة هنرى دوفرنوا ، لكنه أردف يقول إنها بخيلة جدا ولا تعطينى نقودا

أنبأنى أنه سيعود إلى باريس لكى يشتغل مع الألمان، فسألت فى أى شيء فأجاب سأبيعهم سيارات . ولم أره بعد ذلك ، ولا أدرى ماحدث له. وهذا أيها السيد العزيز ، كل ما أستطيع أن أخبرك به بخصوص ذلك الرجل

ولك تحياتى ، أ - كاهان

- ٣٧ -

يكفى الآن أن أطبق عينى . فالأحداث التى سبقت رحيلنا جميعا إلى ميجيف تعود متقطعة إلى ذاكرتى النوافذ الكبيرة المضاءة بقصر زهاروف القديم بشارع هوش ، وعبارات ويلدمير المفككة والأسماء، والاسم الأرجوانى المتألق لأوليج دى فريديه ، ونقاط أخرى دقيقة حتى صوت ويلدمير الأجش والمتعذر سماعه، كل هذه الأشياء مجتمعة كان لها أكبر الأثر فى توجيهى

فى أصيل اليوم السابق، وجدت نفسى فى الطابق الأول من قصر زهاروف القديم . جموع كثيرة من الناس، وكعادتهم ظلوا مرتدين معاطفهم. أما أنا فكنت من غير معطف اجتزت الغرفة الرئيسية حيث رأيت نحو خمسة عشر رجلا واقفين حول التيلفونات وجالسين فى مقاعد جلدية يعقدون صفقاتهم . وتسللت إلى مكتب صغير ، وأغلقت الباب خلفى . وكان الرجل الذي يجب أن ألتقى به موجودا، فأخذنى إلى ركن من الغرفة، جلسنا فى مقعدين تفصل بينهما مائدة منخفضة، وضعت فوقها جنيهات ذهبية ملفوفة

فى ورق جرائد، وناولنى على الفور بضع رزم من الأوراق المالية لم أهتم حتى بإحصائها ودستتها فى جيوبى. لم يكن يهتم بالمجوهرات . غادرنا المكتب معا ، ثم الغرفة الكبيرة حيث صخب الأحاديث . وكان فى الحركة المستمرة لأولئك الرجال المرتدين معاطفهم ، شىء مقلق . وفى الخارج ، أعطانى عنوان امرأة ، فى ناحية ميدان مالرب ، قال إنها قد تشترى الجوهرتين ، ونصحنى أن أخبرها إننى قادم من قبله وكان البرد يتساقط ، ورغم ذلك رأيت أن أمضى إليها سيرا على قدمى وجدت مشقة كبيرة فى الاهتداء إلى ذلك الشارع بأشجاره العارية والواجهات المعتمة لبيوته . لم يكن هناك أى شذا لأشجار التمر حناء فى حديقة مونو، وإنما رائحة الأرض المبتلة ورائحة العفن .

طابق أرضى فى آخر زقاق مسدود من ذلك النوع الذى ندعوه فيللا أو جنينة ، الغرفة التى استقبلتنى فيها غير مفروشة وليس بها غير أريكة واحدة جلسنا عليها معا . وعلى تلك الأريكة تليفون . امرأة فى الأربعين ، شقراء وعصبية . والتليفون يصلصل بدون انقطاع ولم تكن ترد عليه إلا فيما ندر ، وعندما تفعل كانت تدون ما يقال لها فى مفكرة. عرضت عليها الدبوس والأسورة الماسيتين ، وتخليت عنهما بنصف الثمن شريطة أن تنقدنى المبلغ على الفور ، وقبلت ونقدتنى الثمن

وفى الخارج ، وبينما كنت أسير نحو محطة مترو كورسيل، فكرت فى ذلك الرجل الذى جاءنى فى غرفتى بفندق كاستيل قبل ذلك ببضعة شهور باع من وقت سريع الياقوتة والمشبكين، وعرض علىَّ فى رفق أن أشاركه الربح . رجل كريم ، أطلعته على أسرارى تقريبا وأخبرته عن مشروعاتى للرحيل ، وحتى على الخوف الذى كان يمنعنى فى بعض الأحيان من الخروج. وقال إننا نعيش وقتا عجيبا

فيما بعد ذهبت أبحث عن دنيز بميدان إدوار الثامن، فى شقة فان آلن ، صديقها الألمانى ، وكان قد اتخذها ورشة للخياطة فى الطابق الأرضى

ببيت، فوق بار سنترا بالذات، أذكر أننى كنت أختلف إلى ذلك البار، أنا ودنيز؛ لأنه يحتوى على قبو كان يمكننا أن نخرج منه من باب آخر غير الباب العمومى . أظن أننى كنت أعرف كل المحلات العامة وكل بيوت باريس التى لها مخارج مزدوجة .

كان يسود تلك الورشة الصغيرة للخياطة هيجان أشبه بهيجان شارع هوش، وربما أكثر، فقد كان فان آلن يعد مجموعته الصيفية . ادهشنى هذا الجهد الطائل والتفاؤل الكبير ، لأننى تساءلت هل سيكون هناك صيف آخر كان يجرب على فتاة شقراء ثوبا من قماش أبيض خفيف فى حين كانت بعض العارضات يدخلن ويخرجن من غرف لأخرى . هناك أناس كثيرون يتبادلون الحديث حول مكتب من طراز لويس الخامس عشر عليه بعض الرسومات الكروكيه وقطع من القماش . بينما تتحدث دنيز فى ركن من الغرفة مع امرأة شقراء فى الخمسين من عمرها وشاب أسمر مجعد الشعر اشتركت فى الحديث معهم، كانا راحلين هما الآخران إلى الساحل اللازوردى. ولم نكن نسمع بعضنا البعض فى الضوضاء السائدة. بينما تدور كئوس الشمبانيا دون أن نعرف السبب .

شققنا لنا طريقا، أنا ودنيز حتى البهو ، وكان فان آلن يرافقنا ومازلت أرى عينيه الزرقاوين شديدتى اللمعان، وابتسامته عندما أطل برأسه من فتحة الباب وأرسل لنا قبلة بيده وهو يتمنى لنا التوفيق .

ذهبنا مرة أخيرة أنا ودنيز إلى شارع كامبا سيريسى . كنا قد أعددنا حقائبنا قبل ذلك. حقيبة سفر كبيرة وحقيبتين صغيرتين ووضعناهما أمام المنضدة الكبيرة بغرفة الاستقبال . وأغلقت دنيز مصاريع النوافذ وأسدلت الستائر، غطت ماكينة الخياطة ، ونزعت قطعة القماش البيضاء المشبوكة فى المانيكان . فكرت فى الليالى التى قضيناها هنا. كانت تشتغل طبقا لباترونات كان فان آلن يعهد بها إليها ، أو تحيك بعض الثياب، أما أنا فكنت أستلقى فوق أقرأ كتاب مذكرات أو إحدى الروايات البوليسية التى كانت

تحبها كثيرا . كانت الأمسيات تشهد لحظات الهدوء الوحيدة التى أوهم نفسى فيها أننا نعيش حياة لا تشوبها شائبة ، فى دنيا هادئة .

فتحت حقيبة السفر ودسست فيها رزم الأوراق المالية التى حشوت بها جيوبى دسستها داخل الصديريات الصوفية والقمصان وفى قاع زوج من الجوارب . بينما تحققت دنيز من الحقيبتين الأخريين لكى تتأكد من عدم نسيان شىء . قطعت الرواق حتى الغرفة لم أضىء النور، وقفت أمام النافذة. كان الثلج لا يزال يتساقط ، والشرطى القائم بالحراسة . على الرصيف المقابل يقف داخل كشك صغير جاءوا به هناك قبلى بأيام بسبب الشتاء أقبل شرطى آخر من ميدان دى سوسيه ، واتجه بخطوات سريعة نحو الكشك . وشد على يد زميله وناوله «ترمسا» ، وراح كل منهما يشرب فى غطائه، الواحد بعد الآخر

دخلت دنيز وانضمت الىَّ أمام النافذة. ترتدى معطفا من الفرو ، التصقت بى . يفوح منها شذا عطر ثمين . وتحت المعطف الفرو كانت ترتدى بلوزة . وجدنا نفسينا فوق الفراش الذى لم يبق فوقه غير الحاشية

وقف فريدى وجاى أورلو ينتظراننا على رصيف الانطلاق فى محطة ليون، وبجوارهما عربة صغيرة عليها حقائبهما الكثيرة . أمسك جاى أورلو حقيبة صندوق ، أما فريدى فكان يناقش الحمال، قدم إليه سيجارة بينما تبادلت دنيز وجاى أورلو الحديث . وسألتها دنيز إذا كان الشاليه الذى أجره فريدى كبيرا يسعنا جميعا . بدت المحطة معتمة فيما عدا الرصيف الذى نقف فوقه، فقد كان مغمورا بنور أصفر . انضم ويلدمير إلينا فى معطف من وبر الجمل يهبط حتى عرقوبيه ، كما هى العادة، وقبعة من اللباد . وانتظرنا فى الخارج حتى يجيء موعد قيام القطار

قضيت بعض الوقت مع دنيز وجاى أورلو فى مقصورتهما وكانت الستارة نصف مسدلة ، وعندما انحنيت ، رأيت من خلال لوح الزجاج أننا نجتاز الضاحية الثلج لا يزال يتساقط ، عانقت دنيز وجاى أورلو، وعدت

إلى مقصورتي حيث كان فريدى قد استقر بها . جاء ويلدمير لزيارتنا بعد قليل . كان يقيم في مقصورة يشغلها وحده، تمنى ألا يأتي أحد لأن صورته كانت قد ظهرت في جميع الجرائد والمجلات المهتمة بأخبار السباق ، إنها صورة قديمة يعود زمانها إلى الوقت الذي وقعت له تلك الحادثة على أرض السباق بأوتيي. حاولنا إن نطمئنه ونحن نقول له أن الناس سرعان ما تنسى وجوه الجوكية

تمددنا فوق فراشينا ، أنا وفريدى . كان القطار قد أسرع، تركنا السيارتين مضاعتين. وراح فريدى يدخن في عصبية . كان يشعر بشيء من القلق بسبب التفتيش ، وأنا أيضا، لكني حاولت إخفاء اضطرابي ، كان معنا، أنا وفريدى وجاي إورلو وويلدمير جوازات سفر دومنيكية زودنا بها روبيروزا ، غير أننا لم نكن متأكدين من صلاحيتها. أخبرنا روبي بذلك . كنا تحت رحمة شرطي أو مفتش أكثر دقة من الآخرين   أما دنيز فهي الوحيدة التي لم تكن تخشى شيئا لأنها كانت فرنسية أصيلة

توقف القطار لأول مرة في ديجون . كان صوت مكبر الصوت مكتوما بسبب الثلج . سمعنا شخصا يمشي بطول الممر . ويفتح باب مقصورة لعله دخل مقصورة ويلدمير .. وعندئذ ضحكنا ، أنا وفريدي، في عصبية

بقي القطار في محطة شالون ساؤون نصف ساعة . بينما استغرق فريدى في النوم . أطفأت سهارتي المقصورة ، فقد أحسست بأنني أكثر أمانا في الظلام ، ولست أدرى لماذا

حاولت أن أفكر في شيء آخر ، وألا أصيخ السمع للخطوات التي ترن في الممر . كان هناك أناس يتحدثون على الرصيف، تناهت إليَّ بعض كلمات من حديثهم، لأنهم كانوا تحت نافذتنا تقريبا . سعل أحدهم في صوت بغيض وصفر آخر . بينما غطى صوت رتيب لقطار يمر على القضيب الآخر على أصواتهم .

انفتح الباب فجأة ، وظهر رجل مرتد معطفا في الممر ، وجرى بنور

مصباحه الكهربى فى المقصورة، من أعلاها حتى أسفلها لكى يتحقق من أنه ليس معنا أحد .. واستيقظ فريدى مذعورا

– أوراقكما

ناولناه جوازينا الدومينيكيين ، وفحصهما فى غير اهتمام، ثم ناولهما بدوره لرجل آخر بجواره لم نكن قد رأيناه بسبب مصراع الباب . وأطبقت عينى . وتبادل الرجلان بضع كلمات فى صوت خافت .

وخطا الرجل الثانى خطوة إلى الداخل والجوازان فى يده، وقال

– هل أنتما دبلوماسيان ؟

أجبته عفويا نعم

وبعد بضع ثوان تذكرت أن روبيروزا زودنا بجوازات سفر دبلوماسية .

وبدون كلمة أعاد إلينا جوازينا ثم خرج ، وأغلق الباب .

حبسنا أنفاسنا فى الظلام . ولزمنا الصمت حتى انطلق القطار . وسمعت ضحكة فريدى ، وأضاء النور وقال لى

– هلم بنا لكى نرى الآخرين

لم تتعرض مقصورة دنيز وجاى أورلو للتفتيش. وقد أيقظناهما ولم يفهما سببا لاضطرابنا . ثم انضم ويلدمير إلينا وهو يرتجف . عندما أعطاهم جواز سفره سألوه إذا كان دبلوماسياً دومينيكيا ، لم ينطق مخافة أن يكون بين رجال البوليس المدنيين والمفتشين أحد هواة الخيل فيعرفه .

وانساب القطار خلال منظر طبيعى من الثلج . ما كان أحلى هذا المنظر وأحبه إلى نفسى؟ أحسست وأنا أرى تلك البيوت الساكنة الهاجعة بثمالة وأمان لم أحس بهما قط قبل اليوم .

كان الوقت لايزال ليلا عندما بلغنا سالانش . وكانت تقف أمام المحطة حافلة صغيرة وسيارة سوداء ضخمة . وحملت أنا وفريدى وويلدمير الحقائب فى حين اهتم حمالان بالحقيبة – الصندوق – الخاصة بجاى أورلو . كنا عشرة من المسافرين سنستقل الحافلة الصغيرة. وكان السائق والحمالان

يضعون الحقائب في الخلف عندما اقترب رجل أشقر من جاي أورلو ، وهو نفس الرجل الذي لمحته في محطة ليون ، وتبادلا معا بضع كلمات باللغة الفرنسية . وفيما بعد قالت لنا إنه مجرد معرفة وأنه روسي اسمه كيريل . وقد أشار إلى العربة السوداء الضخمة ، كان يجلس أمام عجلة قيادتها رجل ينتظر ، وعرض أن يقلنا الى ميجيف ، ولكن فريدي رفض عرضه وهو يقول إنه يفضل أن يستقل الحافلة

كان الثلج يتساقط، وانطلقت الحافلة ببطء، وسبقتنا السيارة السوداء. وانطلقنا في طريق منحدر ، راحت الحافلة تهتز وتتأرجح في كل منعطف حتى أنني خشيت أن نقع في مأزق وتتعطل بنا قبل أن نبلغ ميجيف . ولكن ماالأهمية ؟ كنت أقول لنفسي - كلما ترك الليل مكانا للضباب الأبيض المزغب الذي لا تكاد تبدده أغصان أشجار التنوب - إن ما من أحد سيأتي ويبحث عنا هنا . كان الظلام يغلفنا شيئا فشيئا . حتى ثياب المدينة التي كان يمكن أن تلفت إلينا الأنظار معطف ويلدمير الأصفر وقبعته الكحلية، ومعطف جاي من جلد النمر ، ومعطف فريدي من وبر الجمل ووشاحه الأخضر. وحذاء الجولف الضخم الأبيض والأسود الذي ينتعل به ، كل هذا كان يذوب في الضباب . ومن يدري ، قد ينتهي بنا الأمر الى أن نتلاشى ونذوب . وربما لا نكون إلا كذلك البخار الذي يغطي الألواح الزجاجية . هذا البخار العنيد الذي لم نتمكن من مسحه باليد . كيف يتمكن السائق من معرفة الطريق؟ وكانت دنيز قد نامت ، وانحدر رأسها فوق كتفي

توقفت الحافلة في منتصف الميدان ، أمام مقر العمدية، ونقل فريدي الحقائب إلى زلاجة كانت تنتظرنا ، ومضينا لكي نشرب شيئا ساخنا في محل للحلوى والشاي على مقربة من الكنيسة. وكان المحل قد فتح لتوه ، وبدت الدهشة على السيدة التي قامت بخدمتنا لحضورنا مبكرين هكذا او لعلها لكنة جاي أورلو وثيابنا المدينية . تعجب ويلدمير من كل شيء . لم يكن قد عرف الجبل بعد ، ولا رياضات الشتاء ألصق وجهه بالزجاج وراح

ينظر، فاغر الفم الى الثلج الذى يتساقط على نصب الجندى المجهول أمام مقر عمدية ميجيف ، وسأل السيدة كيف تعمل التلفريكات، وهل يستطيع أن يقيد اسمه فى مدرسة التزلج

كان الشاليه يعرف باسم شاليه «صليب الجنوب» ، وكان كبيرا ومبنيا من الخشب الداكن، وله مصاريع خضراء . وأظن أن فريدى أجره من أحد أصدقائه بباريس. وكان يشرف على منعطف للطريق ، ولايراه أحد من ذلك الطريق لأن ستارا من أشجار الدنب تخفيه عن العيون ، ونصل إليه عن طريق آخر متعرج . والطريق الرئيسى يمتد إلى مكان ما ، لكنى لم أشعر أبدا بالفضول لمعرفة ذلك . كانت غرفتنا أنا ودنيز تقع فى الطابق الأول ومن النافذة ، من أعلى شجر الدنب ، كما نرى قرية ميجيف كلها ، وكنت قد تمرست فى أيام الصحو على معرفة قبة جرس الكنيسة ، والفندق الذى فى أسفل روشبرون الذى يبدو من بعيد كبقعة حمراء ، ومحطة الطريق وميدان التزلج والمدافن فى آخر القرية . واحتل فريدى وجاى أورلو الطابق الأول كله ، إلى جانب غرفة المعيشة ، ولكى نصل إلى غرفة ويلدمير كان لابد لنا من هبوط طابق آخر لأنها كانت تقع تحت الطابق الأرضى . وكانت نافذته عبارة عن كوة صغيرة على مستوى الأرض . ولكن ويلدمير هو الذى اختار الإقامة فيها .. وكان يدعوها جحره

لم نكن نغادر الشاليه فى بادئ الأمر . نلعب الورق باستمرار فى غرفة المعيشة مازلت أحتفظ بذكرى محددة لتلك الغرفة . سجادة من الصوف ، وأريكة منجدة فوقها رفوف من الكتب ، ومنضدة منخفضة ، ونافذتان تطلان على شرفة . هناك امرأة تقيم فى الجوار ، تتكفل بشراء لوازمنا من ميجيف. وكانت دنيز تقرأ روايات بوليسية وجدتها بين الكتب ، كما كنت أقرؤها أيضا. وترك فريدى لحيته تنمو .

وكانت جاى أورلو تعد لنا كل مساء طبقا من البورتش ، وهو طبق روسى من حساء الملفوف بالزبدة

طلب ويلدمير أن نأتيه كل يوم بجريدة بارى سبور ، يقرؤها وهو معتكف فى جحره وفى أصيل ذات يوم ، وبينما كنا نلعب البريدج ، بدا مقلوب السحنة وهو يمسك بالجريدة لقد كتب ناقد عن الأحداث التى وقعت فى دنيا السباق فى السنوات العشر الأخيرة ، وتحدث بين أشياء أخرى ، عن الحادث العجيب الذى وقع فى أوتيى للجوكى الإنجليزى أندريه ويلدمير ، وزود المقال ببضع صور من بينها صورة لويلدمير تكاد تكون فى حجم طابع البريد . وتلك الصورة هى التى أثارت فزعه . ربما يكون قد عرفه شخص ،. سواء فى محطة سالانش أو فى ميجيف ، أو فى محل الحلوى الذى بجوار الكنيسة أو ربما تعرفه السيدة التى تقوم بخدمتنا وتأتينا بلوازمنا وتدرك أنه هو الإنجليزى أندريه ويلدمير ألم يتلق مكالمة من مجهول فى بيته بميدان اليسكان قبل رحيلنا بأسبوع

قال له محدثه فى صوت حاول أن يغير نبراته

ألم تزل فى باريس يا ويلدمير ؟ ثم انفجر ضاحكا ، وأعاد السماعة مكانها

وعبثا حاولنا أن نقول له أنه لايتعرض لأى خطر بما أنه مواطن دومينيكى . ولكنه أبدى انفعالا كبيرا

وفى ذات ليلة ، فى نحو الساعة الثالثة صباحا ، قرع فريدى باب جحر ويلدمير فى عنف وهو يصيح

إننا نعلم أنك الجوكى الإنجليزى أندرية ويلدمير ، فاخرج حالا

ولم يقبل ويلدمير هذه الدعابة وظل يومين لايخاطب فريدى ثم تصالحا

وفيما عدا هذا الحادث الطفيف جرى كل شىء فى أتم هدوء فى الشاليه فى الأيام الأولى

لكن شيئا فشيئا ، تسلل الضجر إلى فريدى وجاى أورلو من رتابة استخدامنا لأوقاتنا . وحتى ويلدمير نفسه ، رغم خوفه من أن يعرفوا أنه الجوكى الإنجليزى راح يدور فى المكان

كان رياضيا ولم يتعود على الهدوء وعدم الحركة

التقى فريدى وجاى أورلو ببعض القوم فى ميجيف . ويبدو أن أناسا كثيرين أقبلوا إلى ميجيف للاعتكاف مثلنا. تمت هناك مقابلات وحفلات وقعنا على أصدقائها من فريدى وجاى أورلو اللذين سرعان ما اشتركا فى تلك الحياة الليلية

أما أنا فكنت لا أزال حذرا وآثرت البقاء فى الشاليه مع دنيز

ومع ذلك فقد كنا نهبط أحيانا إلى القرية . نغادر الشاليه فى نحو العاشرة صباحا ، ونسلك طريقا تحفه كنائس صغيرة . وكنا نلج إحداها فى بعض الأحيان وتشعل دنيز شمعة ، وكنا نتقدم ببطء حتى لا ننزلق فوق الثلج.

وعلى مبعدة أقيم نصب حجرى للمسيح المصلوب فى وسط ميدان صغير يبدأ منه طريق وعر ، أعدت فى وسطه درجات خشبية ، ولكن غطاها الثلج

وكنت أتقدم دنيز بحيث كان فى استطاعتى الإمساك بها إذا تزحلقت

وفى أسفل ذلك الطريق تقع القرية . كنا نقطع الشارع الرئيسى حتى مقر العمدية ، ونمر أمام فندق مون بلان ، وبعده بقليل ، على الرصيف الأيمن يقع مبنى كئيب من الخرسانة المسلحة هو مبنى البريد . ومن هناك كنا نرسل بضعة خطابات لأصدقاء دنيز

ليون ، هيلين التى أعارتنا شقتها بشارع كامباسيريس ... كنت قد كتبت رسالة قصيرة لروبيروزا أقول له فيها أننا وصلنا سالمين ، بفضل جوازاته ، وأنصحه أن يأتى للانضمام إلينا لأنه أخبرنى فى آخر مرة التقينا فيها فى المفوضية أنه ينوى الذهاب إلى الريف للاستجمام . وذكرت له عنواننا

وكنا نتقدم حتى روشبرون ، ومن جميع الفنادق التى على حافة الطريق تخرج مجموعات من الأطفال تحوطهم مرشدات يرتدين زى رياضة الشتاء الكحلى اللون ، كانوا يحملون مزالج فوق أكتافهم ذلك أنه منذ بضعة شهور تم الاستيلاء فى الواقع على فنادق القرية من أجل أكثر الأطفال فقرا فى

المدن الكبيرة . وقبل أن نتأهب للعودة ، كنا نرى . من بعيد الناس يسرعون إلى شبابيك تذاكر التلفريك

وإذا سلكت الطريق المنحدر خلال أشجار التنوب فإنك تصل بعد قليل أمام شاليه صغير منخفض جدا ، يتألف من طابق واحد ، تقيم به السيدة التى تأتينا بلوازمنا من القرية . وكان زوجها يملك بضع أبقار ، إنه يقوم بحراسة «شاليه صليب الجنوب» فى غيبة أصحابه .

وقد أعد فى الشاليه الذى يسكنه هو وزوجته غرفة كبيرة فرشها بمناضد وبار صغير غير مكتمل . ذهبت أنا ودنيز ، أصيل يوم ، إلى بيت ذلك الرجل لنشترى لبنا . لم يكن ودودا معنا . ولكن عندما رأت دنيز البليارد وسألته إن كانت تستطيع أن تلعب بدا مشدوها فى البداية ثم انبسطت أساريره وقال لها إنها تستطيع أن تأتى لكى تلعب متى تشاء .

كنا نمضى إليه فى أكثر الأحيان ، بعد أن يتركنا فريدى وجاى أورلو وويلدمير للمشاركة فى حياة ميجيف فى ذلك الوقت . كانوا يقترحون علينا أن ننضم إليهم فى الكازينو ، أو فى أحد الشاليهات ،لكى نحتفل بين الأصدقاء .

ولكنا نؤثر الذهاب إلى ذلك الشاليه . وكان جورج ، وهو اسم الرجل ، ينتظرنا هو وزوجته ، وأظن أنهما أحسا بالميل نحونا . وكنا نلعب البليارد معه هو واثنين أو ثلاثة من أصدقائه . وكانت دنيز هى التى تجيد هذه اللعبة أكثر من غيرها ، ومازلت أراها ، رشيقة ، وفى يدها عصا البليارد ، وأرى وجهها الحلو الآسيوى الملامح ، وعينيها الصافيتين ، وشعرها الكستنائى اللون ذا الانعكاسات النحاسية وهو يتهدل فى جدائل حتى وركيها . وكانت تلبس صدرية من الصوف أعارها فريدى لها

وكنا نبقى إلى وقت متأخر من الليل نثرثر مع جورج وزوجته . أخبرنا جورج يوما أن الشرطة سوف تتحقق من شخصية جميع الموجودين لأن أناسا كثيرين بين الذين أقبلوا للاصطياف يقومون بكثير من المجون ويلفتون

إليهم الأنظار أما نحن فلا نشبه الآخرين وسوف يهتم هو وزوجته بنا إذا ما وقع أي سوء .

وقد باحت لي دنيز أن جورج يذكرها بأبيها . كنا نشعل نار الحطب في أغلب الأحيان . ونمضي الساعات ، حلوة ودافئة ، وكنا نشعر أننا في بيتنا.

وفي بعض الأحيان ، كنا نبقى بمفردنا في «شاليه صليب الجنوب» عندما يخرج الآخرون . وكان الشاليه لنا وحدنا . فأتمنى لو أعيش من جديد بعض الليالي الجميلة الصافية حيث نتأمل القرية التي كانت تبدو لنا مكشوفة من بعيد ، تحت الثلج ، وكأنها لعبة منمنمة من تلك الألعاب التي تعرض في واجهات المحلات في أعياد الميلاد . بدا كل شيء في تلك الليلة بسيطا ومطمئنا . وكنا نحلم بالمستقبل . سوف نقيم هنا ، وسوف يذهب أولادنا إلى مدرسة القرية . وسيأتي الصيف في صخب أجراس القطعان التي ترعى ، وسنقضي حياة سعيدة بعيدا عن المفاجآت .

وفي ليال أخرى كان الثلج يتساقط ويتملكني شعور بالاختناق لن نستطيع أن ننجو أبداً ، أنا ودنيز . كنا سجينين في عمق هذا الوادي ، وسوف يدفعنا الثلج شيئا فشيئا ، فلا شيء يثقل على القلب إلا هذه الجبال التي تسد الأفق . وكان الهلع يسيطر عليّ فأفتح النافذة وأخرج إلى الشرفة وأستنشق الهواء البارد الذي تعطره أشجار التنوب ، فيتبدد الخوف ، وأشعر ، على العكس ، بتجرد وبحزن هادئ مبعثه منظر الطبيعة .

وما نحن في كل هذا ؟ كان يخيل لي أن صدى حركاتنا وحياتنا يخنقه هذا البرد الذي يتساقط في نديفات خفيفة حولنا ، فوق برج الجرس وميدان التزلج والمدافن ، وعلى الخط الأكثر عتمة الذي يرسم الطريق خلال الوادي .

ثم بدأ فريدي وجاي أورلو يدعوان بعض الناس إلى الشاليه ليلا ، ولم يعد ويلدمير يخشى أن يعرفه أحد ، وتحول من خواف إلى رجل شديد المرح.

وكان يأتي نحو عشرة رجال ، وأحيانا أكثر فجأة وعند منتصف الليل

ينتقل الحفل الذى بدأ فى شاليه آخر ويستمر أكثر صخبا . كنا نتجنبهم ، أنا ودنيز . ولكن فريدى كان يطلب منا البقاء فى رقة فنمتثل .

مازلت أرى بطريقة مهزوزة بعض الأشخاص . رجل شديد السمرة يعرض عليك باستمرار أن تشاركه فى لعب البوكر ، ويركب سيارة عليها لوحة لوكسمبورج ويدعى أندريه كارل . أشقر اللون ، يلبس صديرية من الصوف الأحمر ، وجهه ملوح لفرط ممارسته التزلج . ورجل آخر نشيط جدا كل ثيابه من القطيفة السوداء ، وهو فى ميخلتى لا يكف عن الدوران كجرس ضخم . وجميلات يمارسن الرياضة ، منهن جاكلين ومدام كامبان .

وكان يحدث أن تنطفئ الأنوار فى غرفة المعيشة أثناء السهرة ، أو أن ينفرد زوجان فى إحدى الغرف .

وأخيرا ذلك الكيريل الذى التقت به جاى أورلو فى محطة سالانش ، والذى عرض علينا استخدام سيارته

روسى متزوج بفرنسية جميلة جدا ، وأعتقد أنه يتاجر فى علب الطلاء والألومنيوم كان يتصل بباريس تليفونيا فى أكثر الأحيان . قلت لفريدى أكثر من مرة إن هذه المكالمات سوف تلفت النظر إلينا ، ولكن الحرص اختفى تماما عند فريدى وعند ويلدمير .

أقبل كيريل وزوجته ذات مساء وبرفقتهما رجل يدعى بوب بيسون وآخر اسمه أوليج دى فريديه . وبيسون مدرب تزلج ، الذى له عُملاء من مشاهير القوم . كان يزاول القفز من فوق ألواح مائلة ، وهى قفزات خطيرة ملأت وجهه بالندوب والجروح ، وكان يعرج قليلا

وهو رجل أسمر من مواليد ميجيف ، وكان يحتسى الشراب ، ولكن هذا لم يمنعه من القفز من الساعة الثامنة صباحا . وفوق عمله كمدرب كان يشغل وظيفة فى إدارة التموين ، وبهذه الصفة كان يمتلك سيارة . سيارة سوداء مغلقة لمحتها عند قدومى إلى سالانش .

أما فريديه ، وكانت جاى قد سبق والتقت به فى باريس ، فكان يقيم فى

ميجيف من وقت لآخر ، ويبدو أنه كان يتعيش من التحايل وبيع عجلات السيارات وقطع الغيار . وكان هو الآخر يتكلم في التليفون مع باريس ، وكنت أسمعه دائما يتصل بشخص غامض في جراج لاكوميت .

لماذا عقدت الحديث في تلك الليلة مع فريديه ؟ ربما لأنه كان ودودا رقيقا. له نظرة صريحة ، وبه نوع من السذاجة المرحة . يضحك لأقل شيء ، كثير المجاملة والاهتمام ، يسألك دون انقطاع إذا كنت على مايرام ، وإذا كنت تريد كأسا من الشراب ، أو تؤثر الجلوس على الأريكة بدلا من المقعد ، أو إذا كنت نعمت بنوم هادئ الليلة الماضية .

كانت له طريقة ينهل بها كلماتك .. عين واسعة مستديرة ، وجبين متموج كما لو أنك تنطق بالحكم والأمثال .

أدرك وضعنا سريعا ، وسألنا إن كنا نريد البقاء في تلك الجبال طويلا ، ولما أجبته بأنه ليس لنا خيار قال في صوت خافت إنه يعرف طريقة لعبور الحدود السويسرية خلسة ، فهل هذا الأمر يهمني ؟

ترددت لحظة ثم قلت له نعم .

قال لي عندئذ إن الأمر يكلف خمسين ألف فرنك عن كل شخص ، وإن بيسون شريك في الموضوع . وإنهما سيهتمان ، هو وبيسون ، باصطحابنا إلى نقطة قريبة من الحدود ، حيث ينتظرنا رجل من أعوانه خبير في أمور التهريب ، سوف ينوب عنهما . وإنهم هربوا إلى سويسرا بهذه الطريقة اثنى عشر شخصا عدد لي أسماءهم . وإن لدى الوقت لكي أفكر ، وإنه سيسافر إلى باريس وسوف يعود في الأسبوع المقبل . أعطاني رقم تليفون في باريس ٧٢ - ٥٤ أوتيي ، كي أتصل به إذا استقر رأيي على شيء .

تكلمت في هذا الأمر مع جاي أورلو وفريدي وويلدمير . بدت جاي أورلو مشدوهة حين عرفت أن فريديه يشتغل بتهريب الناس عبر الحدود ، لم نكن نراه إلا في مظهر شاب عابث يتعيش من التحايل والخداع .

قال فريدي إنه ليس هناك داع لمغادرة فرنسا مادامت جوازاتنا

الدومينيكية تحمينا . أما ويلدمير فقد رأى فى فريديه رجلا ماجنا يتعيش من مصادقته للنساء ، وكان لايشعر بأى ميل أو ود نحو بيسون بالذات ، وأكد لنا أن جروحه مزيفة وإنه يرسمها بنفسه كل صباح بمساعدة الماكياج أكانت المنافسة الرياضية هى التى دفعته إلى هذا القول ؟

كلا ، الواقع أن كل مافى الأمر أنه لم يستطع احتمال بيسون ، ولا أن يوليه ثقته . كان يقول عنه إنه رجل بلا هوية . أما دنيز فكان من رأيها أن فريديه رجل ظريف .

تقرر الأمر سريعا بسبب الثلج ، فهو لم يتوقف عن السقوط منذ أسبوع وأحسست من جديد بالاختناق الذى انتابنى قبل ذلك فى باريس . وقلت لنفسى إننى إذا بقيت أكثر من ذلك فسوف نكون كالفئران فى المصيدة وشرحت ذلك لدنيز .

عاد فريديه فى الأسبوع التالى . فاتفقنا وتكلمنا عن عبور الحدود معه ومع بيسون . لم يبد لى فريديه شديد الحماس وأهلا للثقة كما حدث فى ذلك اليوم .

طريقته الودودة وهو يربت بيده على كتفى وعيناه الصريحتان وأسنانه البيضاء ورقته وظرفه ، راق كل ذلك لى رغم أن جاى أورلو قالت وهى تضحك إن الروس ، لايؤتمن جانبهم ، تماما كالبولونيين

أعددنا حقائبنا ، أنا ودنيز ، فى وقت مبكر جدا ذلك الصباح . أما الآخرون لايزالون نياما ، لم نشأ أن نوقظهم ، تركت رسالة قصيرة لفريدى .

كانا فى انتظارنا فى أول الطريق ، فى سيارة بيسون السوداء ، تلك التى كنت قد لمحتها فى سالانش . جلس فريديه أمام عجلة القيادة . أما بيسون فقد جلس إلى جواره . بينما فتحت صندوق السيارة ووضعت فيه الحقائب ، ثم جلسنا ، أنا ودنيز فى المقعد الخلفى

لم ننطق ببنت شفة طوال الرحلة ، إلا أن فريديه قد بدا بالغ العصبية الثلج يتساقط ، وفريديه يسوق ببطء ، اجتزنا طرقات صغيرة فى الجبال،

واستنزفت الرحلة ساعتين

وعندما أوقف فريديه السيارة وطلب النقود ، خامرنى إحساس غامض أعطيته رزم الأوراق المالية ، فأحصاها ، ثم تحول إلينا وابتسم قائلا أنه يجب أن نفترق الآن زيادة فى الحرص لكى نعبر الحدود ، سأنطلق أنا مع بيسون ، وهو مع دنيز والحقائب ، وسوف نلتقى بعد ساعة عند أصدقائه في الجانب الآخر . كان دائم الابتسام ابتسامة غريبة لا أزال أراها فى أحلامى

هبطت من العربة مع بيسون ، وانتقلت دنيز إلى المقدمة ، بجوار فريديه ، وأنا أنظر إليها وخز قلبى هاجس من جديد ، وأردت أن أفتح الباب وأن أطلب منها أن تهبط ، لنرحل معا . لكننى قلت لنفسى إننى وسواس بطبعى، أما دنيز فقد بدت آمنة ومعتدلة المزاج وأرسلت إلىَّ قبلة بيدها .

فى ذلك الصباح ، كانت تلبس معطفا من فرو الظربان الأمريكى وبلوفر جاكار ، وبنطلوناً للتزلج أعاره فريدى لها ، كانت فى السادسة والعشرين ، كستنائية الشعر ، خضراء العينين طولها مائة وخمسة وستين سنتيمترا ولم يكن معنا متاع كثير . حقيبتان صغيرتان من الجلد وحقيبة سفر لونها بنى غامق .

أدار فريديه المحرك وهو يبتسم . أشرت بيدى إلى دنيز التى أطلت من النافذة ونظرت إلى . تابعت بعينى العربة وهى تبتعد إلى أن أصبحت نقطة صغيرة سوداء

بدأت أمشى خلف بيسون أنظر إلى ظهره وإلى أثر قدميه فوق الثلج قال لى فجأة إنه سيسبقنى للاستكشاف ، لأننا نقترب من الحدود ، ثم طلب منى أن أنتظره

وبعد عشر دقائق أدركت أنه لن يعود . لماذا جررت دنيز إلى مثل هذا الكمين ؟ حاولت بكل قواى أن أقصى عن ذهنى تصور أن فريديه سيتركها هى أيضا ، وأنه لن يبقى منا ، نحن الاثنان شىء

وبينما الثلج يتساقط . لم أتوقف عن المسير محاولا ، عبثا ، أن أهتدى إلى نقطة تفتيش . مشيت ساعات وساعات ، ثم انتهى بى الأمر إلى النوم فوق فراش من الثلج الأبيض .

– ٣٨ –

هبطت من القطار فى سالانش . كان اليوم مشمسا ، وفى ميدان المحطة انتظرتنا حافلة ذات محرك كبير . كما كانت هناك سيارة أجرة واحدة تقف بجوار الرصيف ، ركبتها ، وقلت للسائق

– إلى ميجيف .

انطلق . رجل فى الستين ، بدأ الشيب يضع خطوطه البيضاء فى شعره ، يلبس كندية ذات ياقة من الصوف البالى .

قال لى الجو جميل . أليس كذلك ؟

– آه ، نعم .

نظرت من زجاج النافذة ، حاولت معرفة الطريق الذى نسلكه . إنه لايشبه أبدا الطريق الذى سلكناه فى الثلج . الشمس تلقى بأشعتها على أشجار التنوب ، وعلى المراعى ، وقبة الأشجار فوق الطريق . أدهشتنى كل هذه الخضرة المختلفة ، وقلت للسائق

– هذا المنظر لا أعرفه

– هل سبق أن أتيت هنا ؟

– نعم .. منذ وقت طويل .. تحت الثلج .

– الطريق ليس نفسه دائما تحت الثلج .

وأخرج من جيبه علبة معدنية صغيرة ومستديرة وقال

– أتريد قرصا من الفالدا ؟

– شكرا

تناول قرصا وهو يقول

لقد أقلعت عن التدخين منذ أسبوع وطبيبى هو الذى نصحنى أن أمص

لفالدا .. هل تدخن أنت ؟

- أقلعت عن التدخين أنا الآخر .. قل لى ، هل أنت من ميجيف ؟

- نعم أيها السيد

- عرفت أناسا من ميجيف ، وأحب أن أعرف ماذا جرى لهم ، عرفت مثلا رجلا اسمه بوب بيسون

أبطأ ، وتحول إلىّ وقال روبير ، المدرب ؟

- نعم

هز رأسه وقال كنت في المدرسة معه

- ماذا جرى له ؟

- مات .. قفز من فوق لوح مائل منذ سنوات

- آه .. هذا خبر محزن

- كان في مقدوره أن يفعل شيئا أفضل . ولكن هل عرفته ؟

- معرفة سطحية .

- طاش عقل روبير وهو شاب بسبب عملائه

وفتح العلبة المعدنية وأخذ قرصا

- مات على الفور وهو يقفز

كانت الحافلة تتبعنا على بعد عشرين مترا .. حافلة زرقاء اللون وقلت له

- كان على صلة وطيدة مع رجل روسى

- روسى ؟ .. بيسون يصادق روسيا

لم يفهم قصدى فأردف لم يكن بيسون رجلا مثيراً لأى اهتمام .. كان به مس من الجنون

أدركت أنه لن يقول عن بيسون المزيد

- هل تعرف شاليها بميجيف اسمه صليب الجنوب ؟

- صليب الجنوب ؟ .. إن بميجيف عشرات الشاليهات بهذا الاسم

– هو شاليه يشرف على طريق

– أي طريق ؟

نعم ، أي طريق ؟ ،، ذلك الذى كنت أراه فى مخيلتي يشبه أي طريق جبلي ، فكيف أهتدى إليه . بل ربما لم يعد للشاليه نفسه وجود ، وحتى إذا كان لايزال موجودا

انحنيت نحو السائق . ولمست ذقني ياقة الفرو الكندية وقلت

– عد بى إلى محطة سالانش

التفت إليّ وقد بدت الدهشة على ملامحه وقال

– كما تريد أيها السيد

– ٣٩ –

الموضوع الفريد جان هوارد دى لوز

ولد فى بورت لويس بجزيرة موريس فى ٣ من يوليه سنة ١٩١٢ ، أبوه جوزيف سيمتي وأمه لويز فوكيرو

الجنسية إنجليزى و«أمريكى»

أقام بالتعاقب فى

قصر سالازار بفالبروز بالاورن

٤٣ شارع رايموند بباريس الحى السادس عشر .

فندق شاتوبريان ١٨ شارع السيرك بباريس الحى الثامن .

٥٣ شارع مونتيني بباريس الحى الثامن .

٢٥ شارع الماريشال لويوتي بباريس الحى السادس عشر .

مسيو الفريد هوارد دى لوز لم يكن يزاول عملا محددا فى باريس .

تخصص من سنة ١٩٣١ حتى سنة ١٩٤١ فى البحث عن قطع الموبيليا القديمة لحساب يونانى مقيم فى فرنسا يدعى جيمى ستيرن ، وقام من أجل ذلك برحلة إلى الولايات المتحدة ، موطن جدته .

ويبدو أن هوارد دى لوز ، رغم انتمائه إلى أسرة فرنسية بجزيرة

مورسيوس لعب لعبة مزدوجة باتخاذه الجنسيتين الإنجليزية والأمريكية

غادر مسيو هوارد دى لوز فرنسا فى سنة ١٩٥٠ لكى يستقر فى بولينزيا بجزيرة باديبى القريبة من بورابورا

ومع هذه الرسالة الكلمات التالية

سيدى العزيز ، أرجو المعذرة لتأخرى فى إرسال هذه المعلومة المتعلقة بمسيو هوارد دى لوز ، فقد كان من المتعذر الحصول عليها لأن مسيو هوارد دى لوز ، بصفته مواطنا إنجليزيا أو أمريكيا لم يترك أبدا أية آثار فى ملفاتنا

أمنياتى الطيبة لك ولهوت

ج . ب برناردى

- ٤٠ -

عزيزى هوت ، سأغادر باريس الأسبوع القادم للذهاب إلى إحدى جزر المحيط الهادى ، فقد يوفقنى الحظ وأوفق فى العثور على رجل قد يطلعنى على معلومات عما كانت عليه حياتى ، وإنى أتكلم عن أحد أصدقاء الصبا

حتى هذه اللحظة يبدو لى كل شىء مشوشا . أجزاء وبقايا من شىء ما تعود إلىَّ فجأة أثناء أبحاثى . ولكن بعد كل ، لعل هذه تكون حياة

ولكن هل تكون حياتى حقا ؟.. أو حياة رجل آخر تسللت أنا فيها

سأكتب لك من هناك .

أرجو أن يكون كل شىء على مايرام ، وأن تكون وفقت فى الحصول على وظيفة أمين المكتبة التى رشحت نفسك لها فى ذلك المكان الذى يذكرك بطفولتك .

- ٤١ -

أوتيى ٥٤ - ٧٣ جراج لاكوميت ٥ ، شارع نركو بباريس الحى السادس عشر

- ٤٢ -

شارع يؤدى إلى الشاطئ ، قبل حدائق التروكاديرو . خيل لى أن والد بلانت ، العازف الأمريكى الذى رافقته حتى بيته ، والذى كان أول زوج لجاى أورلو يقيم فى ذلك الشارع

كان الجراج قد أغلق أبوابه منذ وقت طويل ، إذا حكمنا على ذلك من الباب العمومى الكبير الذى يعلوه الصدأ . وفوق ذلك الباب على الجدار السنجابى ، كان لايزال فى الإمكان قراءة اللافتة ، رغم الحروف التى أمحيت إلى النصف جراج لاكوميت

وفى الطابق الأول ، على اليمين ، نافذة تتدلى منها ستارة برتقالية اللون .. نافذة غرفة أو مكتب ؟

هل كان الروسى موجودا فى تلك الغرفة عندما كلمته من ميجيف فى التليفون رقم أوتيى ٥٤ - ٧٣ ماذا كان نشاطه فى جاراج لاكوميت . كيف أعرف ذلك . كل شىء يبدو بعيدا جدا أمام هذا المبنى المهجور

استدرت ، وبقيت لحظة فوق الرصيف . كنت أنظر إلى السيارات التى تنطلق وإلى الأنوار ، فى الناحية الأخرى من نهر السين ، على مقربة من شان دى مارس . قد لايزال شىء من حياتى هناك ، فى شقة صغيرة ، بجوار الحدائق ، ولعل هناك شخصا يكون قد عرفنى ، ولعله لايزال يفكر فىّ.

- ٤٣ -

المرأة تقف أمام إحدى نوافذ الطابق الأرضى ، عند ملتقى شارعى رود وسايجون الشمس ساطعة ، وبعض الأطفال يلعبون الكرة فوق الرصيف ، على مبعدة . وتسمع المرأة الأطفال يتصايحون ويقولون «بدرو» لأن واحدا منهم يدعى بدرو ، ويناديه الآخرون وهم مستمرون فى لعبهم . وهذا الاسم المنطوق بوضوح يرن فى الشارع بصورة عجيبة

وهى لاترى الأطفال من نافذتها ، وكذلك لا ترى بدرو . كانت قد عرفت

شخصا بهذا الاسم في الماضي ، وتحاول الآن أن تتذكر متى كان ذلك بينما تصل إلينا الصيحات والضحكات والصوت الأصم المكتوم للكرة وهي ترتد من الحائط . ولكن نعم .كان ذلك في الوقت الذي كانت تشغل فيه عارضة أزياء ، عند الكسي ماجوى التقت عنده بامرأة تدعى دنيز شقراء ، قسماتها أسيوية بعض الشيء ، كانت تشتغل هي أيضا عند الكسي ماجوى . وقد أحست كل منهما بالميل نحو الأخرى على الفور

ودنيز تلك كانت تعيش مع رجل يدعى بدرو ، لم يكن هناك ريب في أنه من مواطني جنوب أمريكا . وهي تتذكر فعلا أن بدرو كان يعمل في مفوضية . وهو رجل أسمر ، طويل القامة ، لا تزال ترى وجهه بوضوح ، وفي مقدورها أن تعرفه اليوم رغم أنه قد تقدم في العمر دون ريب

جاءها الاثنان ذات يوم هنا ، في مسكنها بشارع سايجون ، وكانت قد دعت بعض الأصدقاء لتناول العشاء

الممثل الياباني وزوجته ذات الشعر الأشقر المرجاني ، وكانا يقيمان على مقربة بشارع شالجران ، وايفلين ، وهي سمراء تعرفت بها عند الكسي ماجوى ، وكان يرافقها شاب شاحب ، ورجل آخر ، ولكنها نسيت اسمه ، وجان كلود ، البلجيكي الذي كان يغازلها .. وكان العشاء مرحا جدا وخطر لها أن دنيز وبدرو يكونان زوجين جميلين

تلقف أحد الأطفال الكرة وهي تطير في الجو ، وضمها إلى صدره ، وابتعد عن الآخرين بخطوات واسعة . وهي تراهم يمرون الأن راكضين أمام نافذتها . وذلك الذي تلقف الكرة كان يجرى وهو مبهور الأنفاس نحو شارع جراند أرميه . واجتاز الشارع وهو لايزال يحتضن الكرة ، والأطفال الآخرون لايجرعون على متابعته ، ويقفون جامدين ، ينظرون إليه وهو يتجه إلى الرصيف المقابل ، ويدفع الكرة بقدمه ، والشمس تبرق فوق كروم الدراجات البخارية في فترينات محلات السيارات التي تصطف بطول الشارع

نسى الطفل الآخــرين ، وراح يجــرى وحـــده مـع الكرة ، ولم يلبث أن انعطف إلى اليمين وهو يدفع الكرة بقدمه ، فى شارع أناتول دى لافورج

- ٤٤ -

اعتمدت بجبينى على الكوة . كان هناك رجلان يسيران على ظهر السفينة وهما يثرثران . وأضاءت الشمس بشرتهما الشاحبة . واعتمدا أخيرا على الدرابزين

لم أستطع النوم ، رغم أن البحر كان هادئا جدا . نظرت إلى صورنا الواحدة بعد الأخرى . دنيز وفريدى وجاى أورلو . وضاعت حقيقتهم شيئا فشيئا فى حين كانت السفينة تتقدم فى سيرها هل كانوا موجودين حقا وعاد إلى ذاكرتى ماقيل عن نشاط فريدى فى أمريكا . كان أمين سرجون جيلبرت . وأعادت إلىّ هذه الكلمات صورة

رجلان يسيران جنبا إلى جنب ، فى حديقة مهملة بڤيلا محانية لملعب تنس ، تغطيه الأوراق الميتة والأغصان المكسورة . وأطول الرجلين ، فريدى مائل هو الرجل الأخر الذى كان يتحدث إليه فى صوت خافت والذى لم يكن غير جون جيلبرت بالتأكيد

وفيما بعد ، سمعت هرجا ومرجا ، أصوات وضحكات فى ممرات السفينة . منافسة على بوق لعزف النغمات الأولى لمقطوعة وبجوار حبيبتى الشقراء واصطفق باب المقصورة التى بجوار مقصورتى. كانوا كثيرين بالداخل، وسمعت ضحكات عالية، ورنين كئوس تتصادم وتنفسات سريعة، وأنين خفيف ممتد

طاف أحدهم بالمقصورات وهو يرن جرسا صغيرا ويقول فى صوت كصوت طفل ملتهب بالبرد إننا عبرنا الناحية الأخرى من الخط .

- ٤٥ -

الفوانيس الحمراء تنتشر هناك، ويخيل لمن يراها فى بادئ الأمر أنها تسبح فى الهواء، قبل أن يفهم أنها تمتد بطول الساحل .. بدا أمامنا جبل

من الحرير الأزرق الداكن.. المياه هادئة بعد اجتياز الصخور
كنا ندخل مرسى بابيت

- ٤٦ -

أرشدونى إلى رجل يدعى فريبورج، يقيم فى بورا بورا منذ ثلاثين سنة، ويصور أفلاما تسجيلية على جزائر المحيط الهادى، اعتاد أن يعرضها بسينما بلييل بباريس. وقيل لى إنه من الرجال القلائل الذين يعرفون الاوقيانوسة خير المعرفة

ومع ذلك، فلم أكن بحاجة لكى أريه صورة فريدى، فقد التقى به مرارا وهو يرسو فى جزيرة باديبى .. ووصفه لى كرجل مديد القامة، يبلغ طوله مترين، ولا يغادر جزيرته أبدا . أو إذا فارقها فإنه يستقل مركبه الشراعى وحده ويقوم على ظهره برحلات طويلة، عبر الجزائر المرجانية فى تواموتو حتى جزائر الماركيز

واقترح فريبورج أن يقلنى إلى جزيرة باديبى .. وركبنا البحر فى مركب صيد، وكان يرافقنا مواطن ماوورى كان لايترك فريبورج لحظة واحدة وأظن أنهما كانا يعيشان معا .. وإنهما لصديقان عجيبان ذلك الرجل القصير بمظهره الذى يبدو كما لو أنه زعيم قديم من زعماء الكشافة ببنطلون الجولف البالى والقميص ونظارته ذات الإطار المعدنى، وذلك الماوورى الضخم. وكان هذا الأخير يرتدى بنطلونا قصيرا وصديرية من القطن الأزرق السماوى . وأثناء الرحلة قال لى بصوت صبى رقيق إنه لعب كرة القدم مع اللاعب الفرنسى المشهور آلان جربو

- ٤٧ -

فى الجزيرة، سلكنا ممرا تغطيه الخضرة وتحفه أشجار جوز الهند وأشجار الخبز . ومن وقت لآخر كنا نلتقى بسور أبيض لايزيد ارتفاعه عن المتر يحدد حدود حديقة يقع فى وسطها بيت .. هو دائما نفس البيت، بشرفة وسطح من الصاج المطلى باللون الأخضر

نفذنا إلى أرض واسعة خضراء تحوطها الأسلاك الشائكة، وتحدها من الناحية اليسرى بضع حظائر، بينها مبنى من طابقين، لونه أسمر مائل إلى الحمرة، قال لى فريبورج إن تلك الأرض كانت مطارا قديما بناه الأمريكيون أثناء حرب الباسيفيك، وإن فريدى يعيش فيها

دخلنا المبنى ذا الطابقين. فى الطابق الأرضى غرفة بها سرير وناموسية، ومكتب ومقعد من الخيزران، وباب يفضى إلى دورة مياه بدائية

كانت غرف الطابق الأول والثانى خاوية، وبعض الألواح الزجاجية تنقص من النوافذ . فى وسط الممرات بعض الحجارة والحصى، وخريطة حربية لجنوب الباسيفيك تتدلى فوق أحد الجدران

عدنا إلى الغرفة التى اتخذها فريدى للإقامة . كانت هناك طيور، ذات ريش داكن، تتسلل من النافذة المفتوحة، وتستقر فى صفوف متراصة فوق السرير، وعلى المكتب وعلى رف الكتب بجوار الباب، كان يأتى منها المزيد قال لى فريبورج إنها شحارير من جزائر مولوقا، وإنها تقرض كل شىء الورق والخشب وحتى جدران البيوت .

دخل الغرفة رجل يرتدى بنطلونا قصيرا وله لحية بيضاء .. تحدث مع الماووري الضخم الذى يتبع فريبورج كظله، وترجم الماووري الضخم ما قيل له وهو يتمايل قليلا منذ خمسة عشر يوما عاد القارب الذى أراد فريدى أن يقوم فيه برحلة إلى جزر الماركيز وارتطم بصخور الشاطئ المرجانية، ولم يكن فريدى به

سألنا إن كنا نريد أن نرى القارب . وتقدمنا إلى شاطئ البحيرة المرجانية. كان المركب هناك وقد تحطم صاريه، وثبتت على جانبيه بضع عجلات قديمة من عجلات عربات النقل لكى تمنعه من الغرق

وقال فريبورج إننا بمجرد عودتنا سنطلب من المسئولين أن يقوموا بالبحث . وكان الماووري الضخم ذو الصديرية الزرقاء السماوية يتحدث مع الآخر فى صوت حاد جدا . يخال أنه يطلق صيحات صغيرة . على أننى لم

ألبث أن تحولت عنهما وقد فتر اهتمامي بهما

لا أدرى كم من الوقت بقيت على شاطئ البحيرة. كنت أفكر في فريدى، كلا إنه لم يغرق فى البحر بكل تأكيد. لاريب أنه قرر قطع كل صلة، واختفى فى إحدى الجزر المرجانية. وسينتهى بى الأمر إلى أن أجده. ثم إنه كان لابد لى من القيام بمحاولة أخيرة، وهى أن أمضى إلى عنوانى القديم فى روما، شارع الحوانيت المعتمة رقم ٢

هبط الليل وراحت البحيرة تختفى شيئا فشيئا، ولونها يخبو كلما توغل الظلام. وكانت لاتزال تجرى على سطح الماء ظلال رمادية تميل إلى اللون البنفسجى، فى موجة فوسفورية .

وكنت قد أخرجت من جيبى، دون وعى منى، صورنا التى أردت أن أريها لفريدى، ومن بينها صورة جاى أورلو، وهى طفلة ولم أكن قد لاحظت حتى هذه اللحظة أنها كانت تبكى . وكانت تقطيبة وجهها توحى بذلك . فحملتنى أفكارى لحظة بعيدا عن هذه البحيرة، إلى الطرف الآخر من العالم، إلى محطة اصطياف بجنوب روسيا، حيث التقطت الصورة منذ مدة طويلة. طفلة تعود من الشاطئ، ساعة الغروب مع أمها. تبكى لأنها كانت تريد أن تستمر فى اللعب، وتبتعد، وتختفى مع منعطف الشارع. أو ليست حياة كل منا سريعة الانتهاء، كحزن هذه الطفلة ؟

باتريك موديانو



● هو أهم كاتب فرنسى منذ بداية السبعينيات حتى الآن.

● مولود عام ١٩٤٥ ونشر روايته الأولى «ميدان النجم» وهو فى الثالثة والعشرين.

● حصلت رواياته على أهم الجوائز الأدبية فى فرنسا وخارجها.

● من أحدث رواياته فى القرن الجديد: «حادث مرير» عام ٢٠٠٣، و«مسألة نسب» عام ٢٠٠٥، و«فى مقهى الشباب» عام ٢٠٠٧

● اهتم فى رواياته بالأشخاص الذين يبحثون عن جذورهم الضائعة.

● يرى أن الحياة عبارة عن مجموعة من الصور القديمة فى صندوق الذاكرة.

هذه الرواية

هى واحـدة من أهم الروايات التى حصلت على جائزة جونكور الأدبيـة.. فـيـهـا يتـضح أسلوب الكاتب، واهتمـامـاته: اللاجذور، التيه، الأسمـاء الغريبـة التى لا معنى لها، البحث عن الجذور، بطل الرواية فقد ذاكرته منذ عدة سنوات، فصار له أكثر من اسم، يرحل إلى بلاد عـديدة، ويلتـقى بالعـديد من الشـخـصـيـات الغامضة، وفى كل مرة، يكتشف معنى جديداً للحياة وأنه يبحث عن زوجته التى تاهت أيضاً فى عالم فقدان الهوية.

هل يستعيد البطل الغامض ذاكرته المفقودة، وترى من سيكون؟ حقاً إنها رواية للبحث عن الأعـمـاق فى داخل كل إنسان..

من لم يقـرأ هذه الرواية، فعليه مراجعة ذوقه الأدبى والفنى.